

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



نسخة
منسقة

محلة
الأربع سلاسل

A.M.

هيفاء بيطار

www.ibtesama.com

غروب وكتابة



<http://www.maktabna2211.com/>

قصص قصيرة

فريق العمل بقسم تجميع مكتب مجانية



Dr. Ahmed Mady
د. أحمد ماضي

A.M.

غروب وكتابة

قصص قصيرة

هيفاء بيطار



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

إهداء
إلى أختي الحبيبة
سلمى
توأم روحي

المحتويات

9	إلى روح أحمد
15	رحمة الكتب
21	غروب وكتابة
25	مدرسة الأمل للمعاقين
30	كفن الأستاذ
42	سراب
51	عطر الحب
61	الصغير ينام في سرير إعاقة
64	الصيد
76	أحلام على الريق
84	امرأة من عيم
90	العقاب
96	جسد بلا رائحة
104	جميلة
108	حب في زمن العولمة
116	ظل أسود حي
124	يوم في حياة ممرضة
132	عذاب
138	فريد
145	صندوق العنبر الأزرق

إلى روح أحمد

ما سأحكيه قدم، لكن أحمد يبعث أمامي كل يوم فأنا أرى وجهه الشاحب النحيل في وجوه كثيرة، صعب أن أكتب عن أحمد دور، أن أبذل جهداً كبيراً لأتمالك نفسي، لأحزم انفعالاتي وأربطها جيداً كي لا تنفلت في كل اتجاه لاحقة أحمد في ضياعه.

منذ تلك اللحظة ضاع أحمد، لحظة توفي أخوه فريد الذي يكبره بستين؛ لم أكن أعرف فريد، لكن كل من يعرفه يشهد أنه عبقرى، لكن حين رأيت صورته هالتي الشبه بين أحمد وفريد لدرجة لم أعرف أحدهما من الآخر، لهما القامة ذاتها والسمة الجذابة نفسها، العينان الواسعتان السوداوان والابتسامة الساخرة نفسها ربما النظرة تختلف بينهما فنظرة فريد فيها ثقة وقوة، أما نظرة أحمد فحائرة، نظرة من يفقد عن شيء عارفاً أنه لن يجده.

مات فريد في العشرين بسبب خطأ طبي، ميتة تافهة، فقد دخل المشفى لتجرى له عملية بواسير، المشفى الوطني البائس لا يهتم بتعقيم الأدوات الجراحية ربما من فرط إيمان العاملين به بالعناية الإلهية، لا يعقمون الأدوات! تجرثم دم فريد بعد العملية ولم يتمكن الأطباء من إنقاذه فمات بعد ثلاثة أيام من العمل الجراحي.

استنفرت المدينة في جنازة فريد، كان مشروع عبقرية في الرسم والموسيقى والمسرح، بقي من فريد عشرات اللوحات الزيتية التي بهرت

أعظم الرسامين وبعض المقطوعات الموسيقية ومشروع مسرحية كتبها
وحن أغانيها...

في الجنازة - التي لم أحضرها - وصف لي أحد الأصدقاء أحمد،
قال: كان يمشي مترنحاً يرتطم بالناس دون وعي منه، أحمد كان صورة
فريد، لكنه لم يملك روحه المبدعة، أحمد كان الغبار الذي يثيره فريد
حين يمشي.

أراد أحمد أن يصير فريداً، أن تتقمصه روح الغائب - صار يلبس
ثيابه ويدخن غليونيه، ينام في سريره ويتأمل لوحاته طويلاً، يستمع
لموسيقاه لكنه يعجز عن خلق شيء... أحمد كان مبهوراً بأخيه الذي
عاش عمره القصير بقوة موهبته وحدها، أحمد يبحث في أعماقه المعتمنة
عن بذرة موهبة، فلا يرى سوى ضباباً وألماً.

أحمد عنوان عصرنا، روح الشباب المعذب بالوحشة والتخلي،
ورغم المرات القليلة التي التقيته فيها فإنه كان يأسرني بتعبير الألم
والضياح في عينيه.

أحمد لا يعرف من يكون! إنه يحاول التعرف على صفاته، يحاول
بلورة شخصيته يتعمد أن يدخل في حديثه بعض الأقوال الذكية المهمة
التي يحفظها، تهمه الصرعات الفكرية يحفظ أسماء الكتاب والكتب الذين
أثاروا ضجة، يحفظ عناوين الكتب التي منعها الرقابة ويستमित
للحصول عليها، لا يقرأها، بل يتباهى أنه يملكها محاولاً بتلك
الممارسات أن يعطي هوية لشخصيته الضبابية يبحث عن الأشخاص
المشهورين، ينحشر في جلساتهم، ويتباهى طويلاً أنه جلس بجوارهم.

كان أحمد بطيء الكلام، وفي صوته ارتعاش خاص، في وجهه
الأسمر النحيل رهافة، نوع من قلق يشع من كيانه كله، نحوله جعله
أقرب للأشباح، أحسه حين يدخل مكتبي كأنه يطفو في الفراغ،

كَأَن قَدَمِيهِ لَا تَلَامِسَانِ الْأَرْضَ، أَرْحَبَ بِهِ فَيَجْلِسُ مُتَفَرِّساً فِي وَجْهِهِ
بَاحِثاً عَنْ تَقْيِيمِي لَهُ.

يَتَأَلَّمُ أَحْمَدُ حِينَ يَقْرَأُ فِي عَيُونِ النَّاسِ اسْتِخْفَافَهُمْ بِهِ، يَعْرِفُ أَنَّهُمْ
يَعْتَبِرُونَهُ فَاشِلاً، حِينَ يَقَارِنُونَهُ بِأَخِيهِ، وَلَأنَّهُ تَرَكَ الْجَامِعَةَ مِنْذُ سَنَتِهِ
الْأُولَى وَفَتَحَ دُكَّانَ حَلَاقَةِ لِلرِّجَالِ، كَانَتْ دُكَّانُهُ مُقَابِلَ مَكْتَبَتِي وَكَمْ مِنْ
الْمَرَّاتِ كُنْتُ أَتَلَصَّصُ عَلَى أَحْمَدَ يَقِفُ عِنْدَ النَّافِذَةِ سَارِحاً فِي الْأَشْيَاءِ
يَنْفُثُ الدِّخَانَ بِشِرَاهَةِ مَشْعَلاً سِيَّجَارَةً مِنْ عَقَبِ أُخْرَى.

أَحَاوَلْتُ أَنْ أُوَصِّلَ لِأَحْمَدَ رَأْيِي بِأَنِّي أَحْتَرِمُهُ وَأُسْعِدُ بِلِقَائِهِ، يَسْعِدُهُ
ذَلِكَ لَكِنِ الشُّكَّ يَعَاوِدُهُ يَعْتَقِدُ أَنِّي أَشْفَقُ عَلَيْهِ.... أَعَاتَبَهُ لِإِدْمَانِهِ عَلَى
الْكُحُولِ أَعْنَفَهُ: أَحْمَدُ، تَسْبِقُكَ رَائِحَةُ الْكُحُولِ فِي أَيِّ وَقْتٍ... لِمَاذَا هَذَا
الاسْتِهْتَارُ بِصَحَّتِكَ!!؟

يَضْحَكُ كَاشِفاً عَنْ أَسْنَانٍ مُصْفَرَّةٍ مِنَ التَّدَخِينِ، يَتَنَفَّسُ بِمَشَقَّةٍ
وَهُوَ يَرْتُنُّ بِكَلِمَاتٍ لَا أَفْهَمُهَا وَلَا يَهْمُهُ أَنْ أَفْهَمُهُ... يَتَكَلَّمُ أَحْمَدُ كَأَنَّهُ
يَهْذِي وَجْهَهُ يَعْبُرُ عَنْ خَفَايَا رُوحِهِ الْمَعْدَبَةِ، يَنْتَقِلُ فَجْأَةً مِنْ أَقْصَى
دَرَجَاتِ الْهَزَلِ إِلَى الْجِدِّ وَفِي لَهْجَتِهِ حِمَاسٌ يَائِسٌ، صَدَغَاهُ يَتَقَلَّصَانِ دَوَماً
وَهُوَ يَتَكَلَّمُ، كَأَنَّهُ يَلْجِمُ دَمَهُ الْغَاضِبَ.

مَا يَبْقَى فِي نَفْسِ أَحْمَدَ مِنْ مَشَاعِرٍ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَعْبُرُ عَنْهُ... أَحْمَدُ
يَعَانِي إِعَاقَةً رُوحِيَّةً وَذَهْنِيَّةً يَسْحَقُهُ حِلْمُهُ بِالتَّفُوقِ، حِلْمُ الْقُوَّةِ، قُوَّةُ
الْمُوَهَّبَةِ الَّتِي كَانَ يَمْتَلِكُهَا فَرِيدٌ... أَيْمُوتُ الْعَبْقَرِيُّ وَيَبْقَى النَّافِهُ! أَحْمَدُ
يُؤْمِنُ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ وَيَبْقَى فَرِيدٌ، فَهُوَ فِي أَعْمَاقِهِ يَشْعُرُ أَنَّهُ لَا
شَيْءَ وَبأنَّهُ ظَلَّ لِأَخِيهِ، أَحْيَاناً يَتَجَرَّأُ أَحْمَدُ وَيَعْبُرُ عَنْ اضْطِرَابِهِ أَمَامِي،
أَشْجَعُهُ، يَبْدَأُ الْكَلَامَ، لَكِنِ حَدِيثُهُ يَنْقَطِعُ فَجْأَةً، يَحْرُكُ يَدَيْهِ حَرَكَاتٍ
تَدُلُّ عَلَى قَلْقٍ مَحْمُومٍ، لَيْسَ لَدَيْهِ أَيْةٌ رَغْبَةً بِتَوْضِيحِ أَفْكَارِهِ، لِأَنَّهُ لَا أَفْكَارَ
خَاصَّةَ بِهِ.

تنتابه رغبة في أن يظهر بمظهر المستقل عن الناس، لكنه يعرف أنه ظل للآخرين، يعيش أحمد حياته مُستزلاً لأشخاص كريهين من شدة افتتاهم بأنفسهم، أحمد بالنسبة لهم الجمهور الذي يستمع إليهم بصبر لا محدود، ويصفق لهم، موحياً لهم أنه معجب بأفكارهم، بينما هو في الحقيقة يحقرهم وينفر من صلف روحهم لكنه لا يملك الجرأة ليعتد... إلى أين سيذهب، إنه تائه في هذا الكون المعقد.

كل حلم من أحلامه ينصرف إلى فريد، لا يستطيع أحمد تحمّل أحاسيسه، إن لم يفرق في سبات الكحول، إنه ينشد طمأنينة زائفة وراحة أقرب إلى الموت.

ذات عصر دخل مكتبي متعتقاً من السكر، ترتج قبل أن يجلس على الكرسي، قال لي وعيناه تطفحان بالدمع: أشتهي أن أقبل الأرض التي مشى عليها.

أحمد أسير ذكرياته الهذيانة عن فريد، فريد الذي له شكله تماماً وبخطاب نادر لكنه للأسف لا يملك روحه، خبط بيده على صدره وقال: أوف الضجر يرهق قلبي.

استغربت من تعبير (الضجر)! لكن متى كان أحمد يجيد التعبير! فجأة تكشف لي الحقيقة التي تعذب أحمد، شفّ جسده النحيل عن تلك الحقيقة لدرجة لم يترك لي مجالاً للالتباس، أحمد يشعر كل لحظة أن كرامته جريحة، ماذا فعل أحمد بعد وفاة أخيه؟؟... استجاب لنصيحة المقربين بأن يرفع شكوى ضد المشفى، لأن أخاه مات بسبب تلوث الأدوات الجراحية.

حصل أحمد بعد سنتين على مبلغ تافه من المال كتعويض عن وفاة أخيه، أحس أحمد أنه قبض ثمن دم أخيه، أنه باعه، يتعذب أحمد بسبب نبل نفسه يجد نفسه هشاً ومُهمشاً ولا يملك أدوات ليخلق صفاته، يرى

من حوله لصوصاً ومنافقين يحتلون مناصب حساسة، يضطر للتصفيق لهم واحترامهم.

ثرى من هو؟ من يبالي بحلاق فقير وسكير؟ الناس يعاملونه باستخفاف رغم أنه يصغي لهم إصغاء كله حب وحنان ويخدمهم بحماسة صادقة.

تنتاب أحمد نوباً من المزاج القاتم فينسحب من المجتمع محتبئاً في قوقعة وحدته ويحب من وقت لآخر أن يجمع الأصدقاء في بيته، يصرف كل دخله من دكان الحلاقة لتقدم مشروبات ومازوات للأصدقاء وحين يزورهم يقدمون له فتات صحوهم المتسخة بأنانيتهم.

لا ينسى أحمد أبداً عيد ميلاد كل واحد من معارفه، ولكل واحد يقدم له الهدية التي تسعده ولا أحد منهم يتذكر عيد ميلاده، وإذا صدف أن تذكر أحدهم عيد ميلاده فيكون مخطئاً في التاريخ، قبل أيام أو بعد أيام... يشعر أحمد أنه من ضباب.. يحاول أن يرسم مثل أخيه لكنه يعجز عن خلق شيء، كان فريد يرسم عدة رسوم توضيحية قبل أن يخلق لو-نته كاملة، كل محاولات أحمد للرسم كانت ذاتها، يرسم نقطة سوداء في صفحة بيضاء... إنه نقطة تائهة في الكون، تعذبه تفاهة روحه، حلم الموهبة يستولي عليه، يشعر أنه عاجز أن يكون حتى إنساناً عادياً...

يمر أحمد بفترات غريبة، يجهل هو ذاته لم يمر بها، يخلق كذبات غريبة وتراوده أفكار جنونية، يخلق قصصاً عن علاقات غرامية مع فتيات وعن لوحات رسمها فنالت إعجاب الرسامين والنقاد وعن قصائد ألفها ونشرها في مجلات تمنع الرقابة دخولها! يحس أحمد أنه يمضي نحو الهوة دون أن يفكر... كل يوم يشعر بتفاهته وتفاهة حياته، يقصّ شعر الرجال ويخلق ذقونهم، يحاول قراءة أفكارهم من شكل رؤوسهم، يدخن بشراهة ملاحقاً الدخان الذي يرسم دوماً وجه فريد.

يجد أحمد نفسه مضطراً أن يؤمن بالقدر كي يخفف عذاب روحه، احتل القدر حديثه في الفترة الأخيرة، يسألني ويسأل الأصحاب: ألا تعتقدون أن قدر فريد أن يموت في العشرين؟... لم أحاول أن أفتش عن خلفية هذا السؤال اعتقدت أنه يحاول أن يخفف عن نفسه ألم فقدان الحبيب، إلى أن أتاني خبر سقوطه من الطابق الثامن!!... يُقال إن قدمه زلّت وسقط، وأنه على الأغلب كان سكران، لكني لم أصدق أبداً تلك القصة، فأحمد أراد أن يموت، من نسيج يومه العادي تنبعث رائحة الموت.

كانت جنازته متواضعة جداً، ومعظم أصدقائه تعللوا بأعذار قاهرة ولم يودعوه إلى مثواه الأخير...
أحمد كان يبتسم وهو ميت، ابتسامة صافية حقيقية، عجز عنها وهو حي.

رحمة الكذب

أخذ جسدي يرتعش بقوة خارجاً عن إرادتي من تأثير ثقل الحنيفة، ذكّرتني تلك الرعشة بطفولتي، إذ كنتُ أرتجف لا إرادياً حين يعارِدي رعبى الأبدى من أبى وتهديده لي بالعقاب.

كانت كلماتها تتساقط كالرصاص في قلبي المترع بحبها... أجد نفسي مضطراً للإيمان بالقدر، فما الذي دفعني لإلغاء سفري ومناجاتها.... ألم أتركها البارحة مجنونة من السعادة لأني سجلتُ البيت الأنيق باسمها فدعتني لوليمة حب سخية لم أتخيلها في حياتي، لدرجة اعترفت لها أنني تعلّمت منها فن الحب، هي الفتية التي لم تتجاوز الخمسة والعشرين وأنا الكهل على أعتاب الستين.

وقفتُ كاللص في الردهة المعتمة محاذراً أن أصدر أي صوت، كتمت أنفاسي وأنا أصغي لحديثها الهاتفي، كانت منبطحة على الأريكة شبه عارية، تداعب بيسراها سلسلة عنقها الذهبية التي أهديتها إيادها دون مناسبة، فهي تعرف كيف تدفعني إلى فعل ما تريد دون أن تطب شيئاً.

أظن صعب على رجل في الستين أن يشرح لماذا وكيف صار عائقاً! هذه الجنيّة جعلتني أفهم حياتي وأفتح عيني على الحقيقة، كنتُ أجهل أنني أصبحتُ أكره زوجتي وأني أقرف من طيات بطنها الرخو ولا أحس بأية إثارة حين أقبل شفيتها اليابستين وعنقها البدين، وأشمئز

من يديها السميكتين رغم طلاء الأظافر الفاقع والخواتم الثمينة....
كنتُ أنسى نفسي أمام نظرات الشابة وهي ترنو إليّ بعينين نجلاوين،
وتنظر إليّ نظرات طويلة مثيرة وملحّة فيلتهب دمي، وأغدو مستعداً أن
أدفع حياتي ثمن لحظة سعادة كثيفة.

كنتُ أنصت لها بقلب هائج، من هذا الرجل الذي تخاطبه كما لو
أنه أنا؟ كيف تستعمل العبارات ذاتها وبموسيقى صوتها نفسها حين
تكلمني... أموت عليك، ما مصدقة ألصق بك... أعبدك عبادة...
التبست الحقيقة في ذهني، لعلها تحدثني أنا! أمكني أن أرى ألق الشهوة
يومض في عينيها وهي تتكلم وقد التصقت سماعة الهاتف بفمها....
بهرني موهبتها رغم ألمي الحارق، وعرفتُ من شدة سيطرتي على نفسي
عمق التوتر الذي أعانيه.

أإلى هذا الحد تتقن دورها معي؟ أيعقل أن يكون سلوكها معي
تمثيلاً! كنتُ لا أزال مُسمرّاً في المدخل ويدي في جيبي تقبض بقوة
على العلبة المخملية الزرقاء وفيها خاتم الألماس الذي أردتُ أن أفاجئها
به.

توجهتُ إلى الحمام، سمعتُ صوتها الدافئ يغرّد اللحن ذاته حين
تكون تحضر ذاتها لحفلة الغرام. امرأة حوّلت قلبي السميكتين إلى فراشة
رشيقة، جعلت حياتي إيقاعاً جديداً، قبلها كنتُ قد تحوّلت إلى رجل
ينتظر شيخوخة بلا أمراض قانعاً بشريكة العمر الأبدية وبالأولاد
والأحفاد.

كم كانت حياتي يابسة، بلا رشّة فرح حقيقي، جاءت هي
لتحررني من غثيان الحب الأسري ومن أسئلة أولادي التي تغرقني
بالاكتئاب، يعتقدون أنهم يحبونني ويخافون على صحتي، كل حديثهم
معني عن الصحة!

- هل تناولت دواء الضغط؟

- لا تكثّر التدخين.

- خفف من أسفارك فهي مرهقة لرجل في عمرك.

- لا تسهر كثيراً، فالنوم ضروري لرجل مثلك، لم تعد شاباً حتى

تتحمل طول السهر...

كنتُ أسخر من وصاياهم التي تفوق الوصايا العشرة، حين اقتحمت تلك المرأة الملهبة بالوجد حياتي شعرتُ أني أدشن عمراً جديداً، لم يشن علي الوله مثل هذا الغزو الذي لا يقاوم ولم أعرف مشاعر بذلك الزخم كما أحسسته معها رغم علاقتي الغرامية العديدة، لكن هذه الفتاة بدّلتني، جعلتني أحس بسعادة أني رجل، يُحب ويُثير، رغم اقترابي من الستين وعلي الاعتراف أن طاقتي الجنسية تضاعفت مراراً رغم عدم استعمال الفياغرا.

هل أقتحم عليها الاستحمام السعيد وأفاجئها بما سمعت؟ وأُسمرها في الخيانة؟ هل امتلك الجرأة لفعل ذلك؟ ما بالي مسمراً هكذا وعياني طافحتان بالدموع؟ كنتُ أقف مرتعشاً مخدولاً شاعراً أني خرقة بالية، ورغم ألمي المذل أمكنني تذوق النشوة التي تحركها بي بصوتها، استأنزني الفضول لأعرف من هذا العشيق الذي تغازله بالكلمات ذاتها التي تقولها لي؟!.. وحيداً في الظلام، مطروداً من جنة الحب، تكشفت لي الحقيقة. كيف فاتني أن شابة فتية تحبني لذاتي، أليس واضحاً أنها تهمني جسدها مقابل المال، مقابل مطر الهدايا الثمينة والأسفار والبيت الذي كتبه باسمها، لقد حققت ما أرادت وصار بإمكانها أن تدعو عشيقها أو عشقها إلى البيت.

خرجت من الحمام، غزاني عطرها المثير، طعنتني الشهوة بخنجرها الحاد، كم رغبتُ بهذا الجسد الذي يخونني، هذه المرأة - الشيطان -

جعلتني أزحف على بطني سعيًا لامتلاكها لتركني حين تشاء هيكلاً
محترقاً يعصف فيه الفراغ واليأس، وجدتني في مستنقع يأس هائل نَبَع من
أعمامي المجهولة التي لم أنتبه لها من قبل.

فجأة تذكرت حياتي الماضية، الأحفاد والأصدقاء الكهول الذين
ألاعبهم الورق لساعات زاحفين بحديثنا إلى الماضي دوماً، إذ لا مستقبل
لنا، متذكرين بذاكرة مشوشة عشيقات عابرات طمرهن النسيان...

هل ألام إذ سمحتُ لهذه الشابة باقتحام حياتي من باب الملل
العريض؟ لتجعل أيامي تشبه طريقاً صاعدة للقائها.. فجأة أدركتُ
مدى الضعف الذي هويت إليه وأنا معها، كيف لم أنتبه أن تلك
الشابة طمّاعة، وأنها تعبد المال، لكنها في الحقيقة صاحبة ذوق رفيع
وتتمتع بثقافة عالية وتكتب نثراً جميلاً، لكن أهم ما يميزها أنها ممتلئة
بالحقد على هذا الزمن، على الأغنياء اللصوص وهي مؤمنة أن شابة
بثقافتها وذكائها من العار أن تكون فقيرة وستسعى جهدها لتنضم
لقائمة الأثرياء، من حين لآخر كانت تفاجئني بقصائد عذبة تكتبها لي،
وعدها أن أطبعها بديوان، من قال أن أجمل الشعر أكذبه؟ أليس أجمل
الحب أكذبه أيضاً!!..

غارق في فراغ روحي المصدومة صريع هوى لا يقاوم، أتساءل
هل أفاجئها أم أصمت وأتفرج على عشيقها؟ يا للذل الذي أحسه وأنا
أشعر أنني أرغبها بقوة، لمحت طرف قميص نومها الأبيض الحريري، كل
هذه الهدايا قدمتها لها لتخونني.. كنتُ أعتقد أن المفاجأة ستدفعني إلى
الانتقام، لكن ها هي تدفعني للحضيض اللامبالاة.

خسرت من البيت كمطرود من الجنة ووقفت في عتمة الدرج
أنتظر غريمي. مشاعري مشوشة ومرضوضة على نحو غريب، كنتُ
أفكر بها، بدورها الذي تتقنه بشكل مُبهر، إنها فنانة بامتياز، تمارس

الحب بفتية عالية، لعلها مشروع ممثلة عبقرية!! لكنها حركت حباً في نفسي، حباً أكبر مني... كم أشفق على نفسي وأنا أعاني ألم المنازع الوحيد، حبست أنفاسي وأنا أراه، شاب رشيق، حدقت في ثيابه، هوى قلبي فهو يلبس قميصي، أحسست بقبضة قوية تعصر قلبي، فهزت كيف تختفي بعض ثيابي وقداحاتي، كنت أعتقد أني أضيّعها في أسفاري، لكنها تهديها بوقاحة لعشيقتها.

وجدت نفسي مجبراً على قبول الحقيقة، إنها شابة في عمر ابنتي الصغرى، ابنة زماننا، زمن الخداع، ليس مثل الأنثى تتقن الخداع... فجأة غمرتني ذكرى منذ ستين، كنت قد دعوتها لحضور فيلم سينمائي مشهور، عجباً كيف لم أنتبه لما قالته.

الفيلم يحكي قصة عجوز ثري وقع في هوى فتاة صغيرة وفقيرة، تعلّق بها بجنون وأعطاهما كل ما يملك، وما أن امتلكت الشابة ثروته حتى هجرته فمات مقهوراً... يومها شتمت الشابة ووصفتها بصفات بئسة، فقالت محتدة: لا تتحدث عن الكرامة والأخلاق حين يكون هناك فقر!

وجدتني أتساءل شابة مثلها كيف ستحصل على بيت جميل ولباس أنيق وعيش كريم... وهي سجين البطالة، وقد أضناها البحث عن وظيفة لم يجدها، وإن وجدتها فبالكد نطعمها خبزاً! اقتربت من الباب، التصقت به، خيل لي أني أسمع صوت أنفاسهما اللاهثة في صعود إلى النشوة... كم أحب وجهها بتحولاته السحرية صاعداً إلى النشوة... هل تقترب من نشوة الآن... كيف أنزع تلك السكين من قلبي؟

لم أحس بشيخوختي كما أحس الآن، لا أجرؤ على اقتحام مملكة الخيانة... مسكينة زوجتي أقرف من جسدها، هي التي تصغرنني بسبعة

أعوام، فكرت أن عشيقتي الشابة تقرف من جسدي لكنها تكابر
لتحصل على المال.

امتلات عيناى بضباب كثيف، فكّرت بتلك الأنثى الموهوبة،
حاولت أن أفهمها بمعزل عن علاقتي بها، إنها تجدد لذة عظيمة في
الخداع... أليس الخداع عنوان العصر! تخيّلت أنني أواجهها بالحقيقة،
وأمكن لي أن أتمثل وجهها الحلو بنظراتها الثاقبة المتحدية، ستصرخ
بي: اسمع المعادلة واضحة، لم أبخل عليك بشيء طوال عامين، وأنتَ
أيضاً لم تبخل. أنتَ اعترفت لي أنك سعيد معي، وأنه لم يسبق لأنثى
أن غازلتك مثلي، فدعني أعش عمري.

يهدني تعب قاس يجبرني على الجلوس أرضاً، أنفاسي تتلاحق كأنني
أختنق، أحتاج أن أتمدّد على سرير مريح دافئ يعبق برائحتها، أحتاج
راحتيها الدافئتين تمسدان جسدي وتدهناه بزيت اللوز... ومداعباتها
الخبیثة تطير آخر ذرة وقار مني.

أحتاج تلك العريضة المدهشة التي تعلمتها في مدرستها... ما قيمة
حياة يابسة كحياتي قبلها... اللعنة على الحقيقة، لماذا يستमित الناس
لمعرفة الحقيقة؟ الرحمة في الكذب؟ السعادة في الكذب؟ الحب في
الكذب!....

تحاملت على نفسي، طلبتُ المصعد وأنا ألث كغريق، لا تزال
قبضتي تعصر العلبة الزرقاء، ابتلعت غصة قاسية وأنا أعترف أن الخاتم
لها.

غروب وكتابة

ثمّة شيء ينهشني دوماً لا أعرف ما هو؟! ما أصعب أن يكون
المخلوق إنساناً!! أشعر أنني أنشد الراحة، راحة لا أعرف شكلها ولا
طعمها، ولا أظنها سترضيني فقد اعتدت على القلق لدرجة صار يفتنني،
أثقف نفسي، أحب الكتب الصعبة التي أكسّر رأسي بين صفحاتها،
أحب أن أتحدث عن قراءاتي بأسلوب جذاب.

يغوييني فن الكلام، أعرف أن كل ما أقوم به له غاية أساسية هي
تمويه إحساسي أنه ليس لي دور في الحياة، فأيامي تتعاقب كرقاص
الساعة، لا تسجل ماضيها ولا تحلم بمستقبل.. أشعر برغبة في البكاء
دون سبب واضح. أكثر ما يثير في البكاء الصمت. أختبئ في رصاتي
وأواجه الناس، لا يمكنهم تخيل اضطراب قلبي، جموحه وجنونه،
أجبر نفسي على رياضة المشي وغالباً ما أمشي وسط نوبة من الألم
والرحشة، وحقائق معينة تبدى لي بوضوح عارٍ، الليل هو قلب
الغموض، أخافه بقدر ما أنتظره، لكن الليل يقدم لي الأسى اللطيف.
يحولني لامرأة مغلقة بوشاح شفاف، عنوان حياتي الانتظار، هناك شيء
أجهله أشعر أن بوسعي انتظاره إلى الأبد حتى علاقتي مع الناس حولي
انتظار، أنتظر مكالمات الأصدقاء والإخوة، أنتظر وصول رسائلهم،
أنتظر قدومهم ورحيلهم، أنتظر بصمات الزمن على وجهي، أنتظر
ابنيتي، أنتظر استيقاظها بشغف وبالشغف ذاته أنتظر نجاحها، ثم يوم

سأفرح بزواجها، أفكر أن هوى الانتظار الأكبر هو انتظار الموت،
المحطة الأخيرة الفاتنة والتي تجعلني أتجحر من الرعب.

ثمّة إحساس مستمر بالفاجعة أعجز عن مداراته، لا أملك سوى
مراقبة حياة الناس، إنهم أحياء، لكن ليس فيهم مسّ من عبقرية، ينتابني
غثيان من محدوديتهم، أقاوم مشاعر التكبر، لكن كلما أمعنت التفكير
في حياتهم الباهتة، أحس بدهشة، أفهم الحياة إبداعاً، أتراهم بحاجة أن
يسجنوا أنفسهم ضمن أقفاص ويكون تحليقهم قصيراً؟ التفاهة تحمي من
الألم، وأنا ماذا أفعل؟ كم مرة ارتعبت من الطاقات الهائلة الكامنة في
جسدي الضئيل، يخيل إلي أحياناً أنني قادرة أن أفجر العالم بالكلمات،
حياتي تشبه الابتهاال، فأنا دوماً بحالة لهفة، بحالة استجداء لحدوث أمور
غير عادية، أتوق لأشياء لا أعرف عنها شيئاً وأكثر ما تغويني ورقة
بيضاء، كل شيء يصبح فاتناً فوق الورقة البيضاء، حتى الخيانة، لدي
هوس بمراقبة الناس الذين يذوون ضحايا أفكار تافهة، أعرف فتاة
عاشقة ضيعت أجمل سنوات شبابها في حب يائس لأنها لا تجرؤ أن
تتزوج حبيبها الذي لا يرضاه والدها! والدها تافه، شبه مجنون!

حين يغمرني إحساس بالعبث المطبق، أتوه في الشوارع الفوضوية
لمدينتي، هنا لدي وقت لا نهائي للتلصص على الحياة، أفكر وأنا أتسكع
كم أن الحياة ممكنة ولطيفة بلا حب ولا أصدقاء، فطعم الوحدة ليس
رديئاً كما يصورونه لنا، لا توجد غواية أكبر من التسكع في الشوارع
أترك للدموع النقية حرية التعبير عن مشاعري، أشعر كيف تذوب سموم
روحي في الدموع، أفكر باللغز العجيب الذي أبحث عنه: شيء ينعش
القلب والروح والجسد... ترى ما هو، أسخر من نفسي حين أجدني
بعيد بحث مستميت أشرب كأس عصير طازج، قد يكون العصير هو
اللغز المحير الذي يعذبني!؟

خوفٌ لا اسم له يتبعني كظلي، أبتسم للموت ابتسامة متصدعة
واسنة أرجوه ألا يقترب، كما رجوت الحبيب الأول احترام عذريتي،
عنوان شخصيتي! وأنا تائهة في فتنه الشوارع، أنسى أن هناك تناقضاً
كبيراً بين أفكاري وحياتي، يحولني المشي السريع إلى طاقة إلى كتلة
منطلقة على صوت موسيقى صاحبة أحتاجها في مسيري.

هذه المدينة مرآة ضجري ووحدي، أحبها وأكرهها، علاقتي بها
ملتبسة، كأم لديها طفل مُعاق، قربه عذاب، وبعده عذاب، تتعذب من
إعاقته لكن نفسها لا تطاوعها لتضعه في مَصَح، تطاردني أشواق جامحة
لحياة كريمة، أول فيها ما أريد دون خوف، مستعدة أن أخسر كل
شيء من أجل لحظة حنين مخادع... ما أبشع عمر الحكمة، حيث
توجد الحكمة يغيب الفرح، أحتاج لمن يخدعني، أحتاج أن أخدع
نفسي، لكنني صرت كالأسماك أنام وعيوني مفتحة.

ما من شيء يؤثر بي، فأنا لا أطلب سوى سحر الكلمة، أعيش
تحت رحمة أهواء الكتابة، تلك العبودية الجميلة، لكن المطهرة من
التفاهة.

صرتُ أفهم سر الغروب، لماذا يسحربي غروب الشمس منذ
طفولتي؟؟!! أليست الكتابة ساعة غروب الحياة؟ ساعة الفتنة التي توهج
فيها الحياة قبل أن يحلّ الموت.

منذ طفولتي أراقب بقلب مرتعش كيف يشعل في الغروب شغفاً
غامضاً، وفي كل المرات التي كتبتُ فيها قصصي في مقهى بحري،
كانت النهايات تنتهي مع الأشعة البنفسجية الأخيرة لشمس غاربة.

الغروب لا يشبه الكتابة فقط، بل يشبه الحب، فالحب الحقيقي
يتألن في أفوله وقد فارقه الغرور الغبي للشباب، وفضاظة الغريزة، ولم
يَبْقَ سوى رحيق حب معتق لحبيب أخير، الحب العميق الذي عرفته

كان في أفوله الغروب البهي الذي يسحرك وأنت ترى فراغ العتمة
السحيق وراءه، ترى الخواء والفراغ والبرودة وراء ألوان الغروب
الساحرة لحب أخير... عندها لا أملك سوى احتضان المشهد بكل
طاقة روحي، ولا أسمح لعينين بذرف الدموع كي لا أشوش اللقطة
الأخيرة، عندها يكون التحديق بالمشهد الأخير أفسى من ذرف
الدموع.

إنه نعيم الألم، وتوهج حب أخير يتجاسر ويتحدى الموت.

مدرسة الأمل للمعاقين

كنتُ مضطرة للابتسام وأنا أتأملها منهارة، كي أجم انفعالاتي العنيفة التي تثيرها في دموعها الأشبه بالطوفان وصوتها المختنق بالألم، صديقتي الصغيرة ذات الخمسة والعشرين ربيعاً تعاني آلام الحب الخارقة. في مطعم لطيف جلست قبالي غير مبالية بنظرات الفضوليين الذين يتفرجون على دموع شابة، مشهد يمزق القلب حقاً، فتاة رقيقة تذوب ألماً من حبيب هجرها. اقترب منا النادل وقبل أن أسألها ماذا تشربين؟ طلبت ويسكي، استحسنْتُ فكرتها عسى الكحول يهدئ روعها.

طلبتُ حلوى الزبيب التي أحبها وبعض المقبلات، شربتُ الكأس الأولى بسرعة كما لو أنها راغبة بغيبوبة عاجلة، رجوتها أن تأكل بعض الطعام، هزّت رأسها بالنفي وقالت وهي تمسح دفقة دموع غزيرة بكومة مناديل ورقية: لا أستطيع، لم أبتلع لقمة منذ ثلاثة أيام.

أحسستُ بالخجل لأني أكل حلوى الزبيب بشهية، مازحتها قائلة: أتعرفين حلوى الزبيب أكثر إغواء من الرجل.... يبدو أنها لم تفهم ما قلته، بيننا هوة، كنتُ قد بلغتُ عمر النضج، العمر الذي ما عاد الإنسان يعاني فيه من آلام الحب، كنتُ أعجز عن فهم جحيم حب يائس، وكنتُ أبدو باهتة أمام تمثال الألم الحي الذي تجسده تلك الشابة ومع ذلك قلتُ لها ما يُقال في تلك الأزمات، لكنها لم تبال بما

قلتُ، أخرجت من حقيبتها قرصي فالיום وابتلعتهما مع جرعة كبيرة من الويسكي. أمسكتُ يدها الباردة بغضب وقلت بتحذير: اسمعي، الكحول مع الفاليوم يتحول لسم. قالت باكية: هذا أفضل.

صار صوتها رخواً بعد الكأس الثانية، ولم تكف دموعها لحظة عن الانهمار، أدهشتني غزارة دموعها، وفكرت أن الغدد الدمعية ممتازة في تجاوبها مع الألم، لكن هناك بشر تحف دموعهم في المصائب، ترى من أي نوع أنا؟ ياه لم أعد أتذكر.... فلم أعد أبكي على ما أحسر بل أبتسم بمرارة.

كنتُ أداري التوتر الكبير الذي تسببه لي حالتها المنهارة، آمنتُ أن الحب مرض بللتُ منديلاً بالماء ومسحتُ وجهها المتورم، رجوتُ أن تأخذ إجازة من البكاء وأن تصغي لي، حدثتها كما لو أنها طفلة: اسمعي يا غاليتي، لم تعرفي سوى القلق والقهر مع هذا الرجل، فلم تتألمين لأنه هجرك؟!... يجب أن تفرحي فقد تحررت من علاقة مرضية لم تعطك سوى الألم والتشتت والضياغ، واسمحي لي أن أقول الفشل أيضاً... فقد أهملت عملي وتعرضت لعقوبات بسببه.

قالت: هذا هو الحب.

- لكن، كيف تحبين رجلاً يعذبك كل هذا العذاب؟

- إنه لا يقصد تعذيبي.

يبدو أنها رغم هالكها من العذاب، لمحت الدهشة والاستغراب في عيني، فاستطردت تشرح لي وجهة نظرها بصوت رخو شاحب يشبه الأنين: إنه رجل رائع، شاعر، حساس، حنون، حين يكون بمسراج مرتفع يرسل لي كل ساعة كلاماً مدهشاً عن طريق الهاتف الخليوي، ثم إنك تعرفين أنه كان يقطع مسافات طويلة ليراني ساعة على الأكثر.

- لكن عمر سعادتك معه قصيرة جداً مقارنة بالألم الذي سببه لك، شعرتُ أن مهمتي أن أثير فيها الارتياح والشك بهذا الحب، فهذا الرجل سادي، سعيد بعذابها، يحس بأهميته حين يراها منهارة، طوال عامين من علاقته بها تكشفت لي خطته بوضوح، يدللها، ويغرقها باهتمامه وعواطفه، ثم يهجرها فجأة بقسوة ووحشية ودون سبب، أو يختلق أسباباً واهية خلبية، ويتركها تتمرغ بالأمها وحباها وهو يراقب تلك الحالة متلذذاً...

لم تكن قادرة على استيعاب تلك الحقيقة، لأن الألم رضى إدراكها وحين طلبتُ إليها وأنا أربت على يديها الباردتين اليابستين أن تبذل جهوداً لنسيانه وسوف أساعدها بخبرة سنوات النضج التي أحملها على كتفي، لكفي في الوقت نفسه أحسد تلك الشابة على حرارة عواطفها، وبأنها لا تزال قادرة على تصديق ذلك الوهم الجميل: الحب. نظرت إليّ باستعطاف قائلة: ولم لا أبذل جهوداً لإحياء العلاقة من جديد؟!...

فجأة خطفتني ذكرى بعيدة، اعتقدتُ أنني نسيته، ذكرى سطعت صورها أمامي دون ألم، كنتُ في الثانية والعشرين، أتذوق بدهشة أحاسيس الحب البكر الأشبه بألوان قوس قزح، كان يكبرني بخمسة أعوام، أحببته لأنه كان يحبس دوماً أفكاري ويفاجئني بها، كنتُ أنظر للحب بشيء من الورع وكنتُ أكتب له جملاً منمّقة، آخذ معظمها من قصائد الغزل والأغاني العاطفية وأكتبها كما لو أنني ألفتها، لم أكن أفهم وقتها أن هنالك نموذجاً من البشر يتلذذون بالآلام الآخرين ويعتبرون أنفسهم مهمين حين يتألم الآخرون بسببهم، كانت علاقتي معه تتأرجح بين حب شديد وألم شديد، ولم أفهم لماذا يفتعل الشجار معي ويشتمني ويهجرني، ثم يعود نادماً ليغرقني بعواطفه؟!...

للحظة توحدت مع صديقتي الصغيرة، صار لنا الصوت ذاته
والنظرة ذاتها، تذكرت أنني طالما اضطررت لابتلاع أقراص الفاليوم كي
أهدئ آلام الحب.... لم أتذكر الحادثة التي أدت لقطع العلاقة بيننا،
لكن المشهد الأخير انحفر في ذاكرتي إلى الأبد، كنت أركض في الشارع
بلهفة حب جامح ينهشني بلا رحمة ودموعي تتساقط أمامي كمطر
حزين، أحاول اللحاق به لأشرح له كم أحبه وبأني لا أستحق قسوته،
لم أبال بنظرات المارة المشفقة، ولم أكثر حين تعثرتُ وجرحتُ
ركبتي وأخذ الدم يسيل منها، كان ذاهباً لحضور مباراة بكرة القدم بعد
أن أشبعني شتماً وتجريحاً ورغم أن الفتيات لا يقصدن الأندية الرياضية،
فلم أتردد لحظة في الدخول والبحث عنه، لم أعد قادرة على الركض،
استوقفت سيارة أجرة، سألتني السائق برقة: خير يا ابنتي، ما بك؟ قلتُ
له: أباي مريض في المشفى، دعا له بالشفاء، عند الإشارة الضوئية
الحمراء، لمحتُ شاباً مُعاقاً يعبر الشارع مستعيناً بعكازين، وجهه وسيم
وهادئ، نظرتُه دافئة واثقة، يدها تقبضان بقوة على العكازين ورجلاه
رخوتان مشلولتان. بضربة سحر انقلبت حالتي وانطفأ الحب المريض
الذي نهش روحي كسرطان، لم يعد يعني لي شيئاً ذلك الشاب
المتغطرس السادي الذي يذلني ويستمتع بتجريحي، سأنزل هنا لو
سمحت، بصوت يتماثل للشفاء أمرت السائق أن ينزلني من السيارة
ووجدتني أمشي بهدوء وبطء وراء الشاب المعاق، توقف واشترى علبة
سجائر وجريدة، استأنفت السير وراءه ونظري معلق برجليه
المشلولتين، كنتُ كالمسيرة أمشي وراءه شاعرة أنني أشفى خطوة بعد
خطوة.

لم أفهم حتى الآن سر تلك المعجزة، كيف شفيتُ من حب
مريض لمجرد أنني لمحتُ شاباً مُعاقاً؟ ماذا عنتُ لي تلك الإعاقة؟ كيف

تفاعلت مع قهري وشففتني بلحظة؟ بعد مسيرة قصيرة ومنتبهة، توقف الشاب وجلس في مقهى رصيف طلب كأساً من الشاي وهو يتصفح الجريدة، كم رغبتُ أن أتحدث إليه، لكنني على الضفة الأخرى لرصيف الحياة، طلبتُ عصير جزر، شربته مستمتعة بطعم الشفاء، ونظري معلق بالشاب الذي أهداني إعاقته لأشفي كي لا أكون مُعاقبة بروحي، كي لا يكون حبي مشلولاً كقدميه.

شكراً، رددتها مراراً وأنا أعود إلى منزلي، رميتُ أقراص الفالسيوم في القمامة، ورجوت أخي أن يقول لذلك الشاب المتغطرس أنني غير موجودة حين يتصل بي.

انتفضتُ فجأةً وسحبتُ صديقتي الصغيرة من يدها، سألتني إلى أين؟! ... لم أجب، كنتُ مصممة، أوقفتُ تاكسي بلهفة وأمرته أن يسرع إلى (مدرسة الأمل للمُعاقين).

كَفَنَ الْأَسْتَاذَ

انتهت قصتي معه دون خاتمة، فقد انفصلنا دون مواجهة، لم تبادل كلمة واحدة ولم نكلف نفسي أن ينظر كل منا للآخر نظرة الوداع الأخيرة. كنتُ قد حُزمتُ أغراضي على عجل ونقلتُ الحقيقتين الثقيلتين من غرفتي إلى الصالون، ورغم اختناق روحي بالغضب والحقد، فإنني تنبّهتُ لدفع شمس الخريف الصباحية التي تغمُر المكان بدفع لطيف جعل قلبي يلين. أدركتُ كم سأفتقد المكان، أما هو - الذي يثقل وجوده على قلبي كصخرة - فأستमित لأحويه من ذاكرتي.

كان يعرف أنني أغادره مستاءة، تجاهلني وهو يمارس طقوس إفطاره ذاتها والمذياع بجانبه يستمع لنشرة الأخبار الصباحية في محطات عدة، كنتُ أحشو أذني بسدادات مطاطية كي أخفف جعير المذياع، ما ذنبي إن كان سمعه ضعيفاً؟!... ومن غير أن أنظر إليه مواجهة لمحتُ صورة وجهه منعكساً في النافذة، وجه قاسي الملامح كأنه تجمّد، ضغطتُ زر المصعد وبانتظار وصوله إلى الطابق العاشر تأملتُ الشقة الفاتنة بحنان كبير عارفة كم سأفتقدها، نقلتُ أغراضي إلى غرفة المصعد، تركتُ بابه موارباً وعلى طاولته التي تناثر عليها أوراقه وكتبه رميتُ له مفاتيح الشقة.

قلتُ بصوتٍ عالٍ محاولة أن أكظم غيظي: ها هي المفاتيح.

لم يلتفت ولم يرد بكلمة، تابع طقوس إفطاره، صفقتُ الباب بقوة
صفقة أشبه بالصفعة تمنيتُ لو أوجهها إلى وجهه وأسرعتُ أهبطُ إلى
أرض الواقع وأنا أردد بنفاذ صبر عبارة بدت لي لانهائية: الحمد لله
ارتحتُ منه، الحمد لله ارتحتُ منه.

عبرتُ الشارع العريض وأنا أجر الحقيبتين الثقيلتين لكني وجدتُ
تعبني لذيداً فهو يعني تحرري منه، لا يزال قسم من خيالي يتفرج عليه
شامتاً، سيضطر إلى جلي الأطباق، فالجارية - زوجته - هجّت منه
ومن عالم أنايته المربع.

بدأ مطر كسول بالتساقط أنعش وجهي المتصلب بالغضب،
أحسستُ بجوع ورغبتُ بشرب القهوة، لم أنتبه لارتعاش يدي من
التعب إلا حين هممتُ بحمل الحقيبتين إلى صندوق التاكسي، أسرع
السائق الشاب يساعدي وهو يحدثني بصوتٍ متعاطف: هل يُعقل يا
أختي أن تحملي الحقائق وأنا موجود؟!...

كم كنتُ أحتاج لصوت إنساني صادق وحقيقي، ومن
مقعدي الخلفي تأملتُ بحرية وجه السائق المنعكس في المرآة الأمامية
للسيارة، قدرت أنه في الثلاثين، ما أجمله... عيناه زرقاوان وأهدابه
كثيفة، أنفه مستقيم وشفته رقيقتان، أحسستُ كم ابتعدتُ عن
عالم الشباب النضر فكل أصدقاء زوجي كهول. وجدتني رغم
مصيبي الطازجة مفتتنة بعالم الشباب، تمنيتُ لو ألامس الوجه
الفتي، أتحمسه بجلده الطري المشدود، العنق الرشيق المشدود،
والشعر الكستنائي المجمّد، يا لعطر الشباب الفاتح للشهية على
الحياة...

سمحت لي نظارتي الشمسية السوداء بتأمل الشاب بحرية، أتراه
متزوج؟!... تفحصتُ أنامله الرشيقة فلم أجد خاتماً، أحسستُ بالرضى

لكأني معنية بحياته، رغبتُ بقوة بالتحدث إليه، قلتُ له: من حسن الحظ لا يوجد ازدحام في الطريق اليوم...

قال: بالطبع، بيروت لا تزال نائمة فالיום أحد.

لكني تمنيتُ لو يكون الازدحام على أشده كي أستمد شيء من العون والدفع من وجه السائق. لم أنجح في تخفيف حالة الغيظ والتوتر في نفسي، وحين وضع السائق الحقيبتين عند باب الفندق، تمنيتُ لو أملك الجرأة وأتوسل إليه أن يمضي معي بعض الوقت لتتحدث عن أي شيء.

استقبلتني موظفة الاستقبال بحفاوة مصطنعة وخيرتني بين غرفة في الطابق الرابع وأخرى في الطابق السابع.

قلتُ لها: أريد الأكثر هدوءاً.

ومن شرفة غرفتي في الطابق السابع، لم يبدُ من بحر بيروت سوى شريط رفيع بعيد، أخذتُ نفساً عميقاً وجلستُ على المقعد بانتظار القهوة والفطور. صفعني خيالي بصورة زوجي الكهل يشرب قهوته على الشرفة الفسيحة، والبحر سخياً أمامه، ورغم كرهِي الصريح له فإنني أحسستُ بشفقة حقيقية عليه، تلك الشفقة التي يثيرها الكهول في أنفسنا.

وضع النادل صينية الفطور الشهية على طاولة صغيرة على الشرفة، شكرته وأنا أنقده بخشيشاً جعله ينحني لي. ومن أول رشفة قهوة سألت دموعي بسلاسة كما لو أنها تفيض من بحيرة راكدة في أعماقي. رحبتُ بالبكاء فهو سيساعدني في التحلل من توترتي.

غريب كم تعطيني القهوة نشوة روحية حقيقية ومع الفئحان الثالث حاولتُ أن أستوضح فكرة تعذّبي، لكنني لا أجد إليها سبيلاً، كان عليّ أن أبدأ في فهم حالتي انطلاقاً من فكرة، لكن لم تستعصي علي هذه الفكرة وتعاندي؟!...

لا يجب أن أتجاهل تعبتي وتوترتي، فأنا لا أعني من ذاتي سوى قلبي المشروخ بحب كبير، ترى من أين أبدأ؟... لكن هل من الضروري أن نبدأ دوماً من نقطة معينة كي نستحلي أمراً يعذبنا؟... الخبز الطري أشعري بالجوع، أكلتُ بشهية زبدة مع مربى الفريز، صفعتني وجهه يحرق بي بنظرات مؤنبة بوجوب ابتعادي عن السكريات والدسم، أدركتُ أنني سأحتاج زمناً طويلاً كي أحوو صورته، تحديداً لأتخلص من سموم هذا الرجل.

هل الرجل سم؟!... يجب أن أبرأ منه. وجدتُ نفسي أنتفض فجأة، أشمر عن ساعدي كما لو أنني سأستأنف شجاراً، أهدق بأوراق بيضاء على الطاولة... وجدتني أكتب دون تفكير: أنتظر كرهك لأرد عليه بكره أكبر.

فاجأتني هذه البداية، تحررتُ من ثيابي، فتحتُ حقيقتي وأخرجتُ قميصاً فضفاضاً أزرق اللون يعطيني هدوءاً وراحة، وعيتُ كم أن ألم روحي حاداً، ترددتُ هل أبتلع حبة مهدئة أو أتحمل أوجاعي النفسية، لكنني تنبّهتُ أن الألم أعطاني حساسية مرهفة أشبه بذكاء خاص، حدستُ أني سأتمكن من تشريح وضعي بدقة هائلة كما لو أنني أدخل نفسي تحت المجهر الإلكتروني.

كانت رغبة عارمة تعتمل في نفسي بأن أوجه له ضربة قاضية، وقد بدأتُ تلك الخطوة بالفعل حين تركته بتلك الطريقة.

لم يسطر قلمي سوى تلك العبارة، رغم رغبتني العظيمة في الكتابة، لكنني تذكرتُ تعبتي وتوترتي ليلة أمس، وكيف لم أستطع البقاء في سريري بل قمتُ إلى الشرفة رغم البرد وأخذتُ بالمشي على طول الشرفة ونظري معلق بالموج الفضوي الملتصع بنور شاحب لقمر وحيد مثلي.

مشيتُ لساعات إلى أن أطلّ الفجر المزرق الناعس، لدرجة آمنتُ
أن هذه الشرفة صممتُ بذلك الطول من أجل امرأة وحيدة
ومخذولة... لم يخفف المشي من غلواء غضبي وحقدِي، بل إن ذاكرتي
اللثيمة أخذت تصفعي بصور شديدة القسوة والإيلام من علاقتي معه،
وحين دخلتُ غرفتي أخيراً لأن مفاصلي آلتني من المشي والبرد أدهشني
وجهي، حاولتُ أن أعرف هذا الوجه المرتسم في المرأة وجه منهك
وقد بلغ ذروة عدم التحمل، عينان واسعتان بنظرة قاسية، كنتُ متجلية
كأياً في تلك النظرة المصممة الفاقدة الصبر والتي تنذر بكارثة. نظرة من
يطل على شفير هاوية ويتحدى الفراغ السحيق تحته.

ومن شدة غضبي صفعتُ وجهي، التهبَ خدي ألماً وأخذ
جسدي الضئيل يرتجف، كنتُ راغبة بالصراخ والبكاء حتى تنشق
حنجرتي، لكني بقيتُ خرساء أحرق في وجهي في المرأة، انتهى مخاض
الأم والغضب حين قررتُ جمع أغراضي وهجره.

استلقيتُ على السرير، أغمضتُ عيني شاعرة كيف يدغدغ
النعاس أطرافِي وأهدأبي، ابتسمتُ لصورة السائق الوسيم الذي
أوصلني إلى الفندق وتحيلتُ كيف تغازله حبيبته، داهمني غثيان وأنا
أتذكر جسد زوجي العجوز كم هو مترهل ومقرف، ياه.. كيف
تزوجته وعمره يزيد عمري بأكثر من ربع قرن.

سلطان النوم يغطيني، أسدلتُ الستائر على ذاكرتي ونافذتي وقبل
أن أغفو أدركتُ أنني للمرة الأولى صرتُ أمتلك موهبة النظر إلى
الحقيقة وجهاً لوجه.

هل استفاقت ذكرياتي وأنا نائمة، هل غفوتُ حقاً، أم استسلمتُ
لشريط الذكريات؟!.. أتفرّج عليه للمرة الأولى بعد أن زالت الغشاوة
عن عيني، ولم يبقَ لي أي وهم أخدع به نفسي. لكن لم تبدو تلك

الذكريات غريبة كأنها لا يمكن أن تكون لي؟... ماذا فعلت طوال سنوات سوى خداع نفسي؟... كنت أرى حقائق فأجبر نفسي على التشكيك بها، فلا أثق بما أرى!!...

انتصر عليّ حين جعلني أؤمن أني لا أستطيع الاستغناء عنه، وقد طواني بين جناحيه من اللحظة التي قررت فيها أن تكون أطروحتي في التخرج من قسم الفلسفة عنده، لا أنكر أنه فتني بثقافته الواسعة وبالمراجع الغنية التي دلتني إليها، كنت أسحر بلهجته التي لا تحمل أي انفعال، فيبدو لي بعيداً، منيعاً، من الصعب الحصول عليه، كان يشجع الطلاب على زيارته في مكتبه الخاص ليس لرغبته في مساعدتهم، بل لسبب أعمق أدركته متأخرة، فهو يريد أن يجمع كل الناس على الإعجاب به، وكان يتعامل مع من حوله بأبهة وفخامة كأنه يعتبر وجوده بين الناس شرفاً لهم، جذبني غموضه وتعاليه كما يجذب النور فراشة ليحرقها، وابتدأ بيننا ما سُمّاه رفاقي غرام الطالبة بالأستاذ. حذّرني المقربون من فارق العمر الكبير بيننا، لكنني كنتُ أشعر بالزهو كونه اختارني لأكون زوجته.

انتقلتُ إلى عالم الكبار والمشهورين، وصرتُ زوجة المفكر والأستاذ الجامعي الشهير. في السنوات الأولى من زواجنا عاملني كما لو أني جوهرة ثمينة يحرص على صيانتها وبلغت حاجته لي كحاجته للماء والهواء فلم يكن قادراً على فراقني بل يصحبني معه إلى كل المؤتمرات التي يحضرها، ويعرفني بشخصيات شهيرة لم أحلم يوماً أن ألتقيها.

كان أسلوبه في التعامل معي ذكياً لدرجة صرتُ أشعر باستمرار أنني مدينة له بكل شيء، ثم بدأ موضوع الحمل يورقني، كل الأطباء الذين استشرتهم أكدوا لي سلامتي وقدرتي على الإنجاب، كنتُ أرجوه

أن يعرض نفسه على الأطباء، فينظر إليّ نظرات استخفاف ولا يرد بكلمة، ثم تحوّلت نظرته إليّ إلى نظرة عدوانية لاشعورية، وبدأت تصلني همسات أن طلاقه من زوجته الأولى كان بسبب عقمه.

دخلتُ مرحلة جديدة في حياتي معه، إذ صرتُ أتأرجح بين الأمل واليأس وبين اليأس والأمل باستمرار. لم أكن أصدّق أن حياتي يمكن أن تستمر من دونه، فهو في قلب وجودي وقد شُغفت به وآمنتُ بعظمته. كان يحاول إقناعي أن موضوع الإنجاب تافه وبأننا زوجين خُلقا لغايات نبيلة!!... لم أكن أملك الجرأة لأصرخ بوجهه: ليس هناك أروع من إنجاب طفل، لكن نمط حياتي اللاتقليدي معه والأسفار ولقاء المشاهير في عالم الفكر والثقافة جعلني أوهم نفسي بأني أعيش بطريقة راقية، غير تقليدية.

ثم فوجئتُ أن حبي له عاد للانتعاش لسبب وحيد أنه خاسر، ولأنه لم يعد يملك أي إغواء يقدمه لي، وفهمتُ أن الشفقة أقوى من الحب بما لا يُقاس.

كنتُ في الثانية والثلاثين وهو في الستين، وقد داهمه العجز الجنسي كلياً، في حين كانت رغباتي ناضجة كثمار تنتظر من يقطفها. لم أفهم كيف تغيّر تعامله معي، فقد أخذ سلوكه منحى غريباً، السخرية من كل أفكار وطر وحاقي. حارب رغبتني بالحصول على الدكتوراه، لكنني صممتُ على الدراسة فصار صمته يزداد ثقلًا، كان له أسلوب مدمر في الصمت، صمْتُ مزدري يدوم أياماً، كنتُ أشرف على فقدان صبري من صمته العنيد، حاولتُ أن أُلينه بحبي واهتمامي فكان يزداد تصلباً.... وكنتُ أتفرّج عليه كيف يتحول إلى إنسان صامت صمّت القبور ولا يضرر أي مودة لأحد!... كان يصغي لكلامي حول وجوب بث الدفء في علاقتنا ووجهه يعبر عن احتقار

ساخر ويُفهمني بطريقة ما أن كل ما أقوله لا يحدث فيه أي تأثير، ثم بدأ ينعزل عن الناس متضجراً من كل أصدقائه، أظنه بدأ ينعزل لإحساسه أن نفوذه ووهج سلطته على من حوله بدأت بالانطفاء. فلم يعد يملك إغواءه القديم.

ثم اقترح أن يستقل بغرفة نومه، ولم تفلح جهودي في جعله يُعالج عجزه الجنسي، نفاني خارج حياته، عندما أصرّ أن يكون لكل منا غرفته الخاصة وصار لا يتوجه إليّ بالكلام إلا نادراً، لكن نظرت المتفحصة والمنتبهة ظلت تلاحقني طوال الوقت.

دخلت علاقتي معه في نفق الضلال والذهول - كما أحسست - صرتُ أنتبه كيف أبدّل تعبير وجهي ما أن يأتي، وتحت مظاهر الألفة والحب الذي أظهره له كان يتفجّر كرهى العميق لشخصه كما لو أني مصابة بدُمل تحت جلد مُعافى. ثم بدأ شعور محيّـر بالخوف منه ينمو في أعماقي، خوفاً غامضاً سرياً لا أفهم كنهه، ما الذي يخيفني فيه؟ صمته؟ تجهمه؟... ما أدهشني أنه صار يمضي إلى شيخوخته بخطى سريعة، ثم صار يبتكر أساليباً لتعذيبى، فهو يحس بلهفتي للحديث كي نخرق رصاص الصمت بيننا، فيهم أن يقول شيئاً مُلاحظاً تنبهي السعيد، لكنه يتراجع ويعود للصمت، صار من مهامى تحليل صمته، فوجهه المُتعالى الصامت والمتخشب يعنى رسالة خفية يرسلها لمن حوله، رسالة تعنى: امدحوني وعظّموني فأنا أعشق المديح، ومن حسن حظّه أن الكثير من تلامذته كانوا يمدحونه حرجاً ولباقة حين يجدونه مثل أبو الهول جاثماً بينهم مجللاً بصمت الرخام.

ما عدتُ أعرف هل يفيد الحديث معه أم لا؟.. صرتُ أتساءل لماذا يتعمّد أن يهينى بلا داع، فأحياناً أجبر نفسي أن أكون سخية معه بعواطفى، فأمر وجهي أن يُشرق بوجهه المتجهّم وأهم أن أقبله قبله

الصباح، فيبعدني عنه ويسألني بسخرية: هل نظّفت أسنانك؟!.. أكظم غيظي وتنفلت شتائم خرساء من روحي ويخطر لي لو أرد ساخرة: أسناني نظيفة معافاة وليست مثل أسنانك المتأكلة مع العمر والتدخين. ذات مساء ألححتُ عليه لمرافقتي لحضور فيلم سينمائي ووسط انزحام والعتمة شعرتُ بيده القاسية تدفعني بقسوة وحقد في ظهري حتى كدتُ أسقط، وحين التفتُ إليه متألّمة ومباغطة من تصرفه، تجاهلني كلياً ورفض أن يعلّق بكلمة حول دفعه لي بتلك الطريقة الوحشية.

إنه يسعى لتدميري روحياً ونفسياً ورغم أنه لم يحدثني أبداً عن زوجته الأولى إلا أنني عرفتُ أنها أدمنت على الكحول بسبب إهماله لها. كان يمكن أن أبقى مضللة أسيرة شعور أنه رفعني إلى فوق وأني مدينة له طوال حياتي بمستوى المعيشة الراقية الذي عشته. إلى أن حلّ يوم مناقشة رسالتي للدكتوراه، فتعلل بالمرض وطلب إليّ ألا أذهب، اعتقدتُ أنه يمزح، كان وجهه مثل قناع وأخذ يسخر من الأساتذة الذين سيناقشون رسالتي متهماً إياهم بالغباء والسخف.

تنبّهتُ لأول مرة أن السمة الأساسية في طبعه هي الحسد فهو لا يقدر على مدح أحد ويميته شعور الندية، إن غروره رهيب حقاً فهو يعتبر نفسه إلهاً ويجب أن يتصور الناس حوله أقزاماً ولم يعد يشعر بخوي بأي شعور سوى تلذذه أن يظهر لي الاحتقار!!...

كان يتكلم كعادته بلهجة لا تحمل أية عاطفة أو انفعال، كنتُ أجهل زخم المشاعر المضطربة التي تعتمل في داخلي، فأنا لا أرى إلا السطح، لا أرى إلا وجهي المحتقن بالغيظ وعدم التصديق، ولأول مرة سمحتُ للهيبة الكره أن يسطع في عيني فاستفاق حقدي كاملاً بهياً حين صممتُ على نيل الدكتوراه، وصلته سموم حقدي فارتعش، لكنه

حاول أن يسيطر على الموقف فاتخذ مظهر من يرغب بحمايتي ولا يرضى أن يمنحني أساتذة تافهون الدكتوراه!...

جلستُ مقابله على الكرسي الهزاز، رفعتُ تنورتي عالياً، داعبتُ فخذي بجرأة وقحة وأنا أنظر إليه بسخرية، لم أرغب يوماً أن أكون لثيمة كما كنتُ يومها، سلوكي أشبه بصفعة قاتلة وحكم قيمة على عجزه ونهايته.

استمررت أداعب فخذي باستفزاز جعل أنفاسه تتسارع من الذل، قلتُ له: سيدهش الحضور لغيابك.

ورغم مظهر اللامبالاة والسخرية الذي ينجح دوماً في تصنعه فإنني أحسستُ بخوفه الحقيقي من خسارتي، لعله أدرك أن طاقتي على خداع نفسي وتحمله قد نفدت وأن هذا الزوج المهم الذي كنتُ أتباهى به قد تحوّل إلى رجل حاقّد معقّد لا يحتمل أن تنافسه زوجته في علمه ومكانته، فهمت أنه يرغب أن أنمو إلى حد معين يحدده هو، هو الذي يحدد سقف نجاحي، إما أن أتساوى معه أو أتفوق عليه فهذا شيء فوق طاقته.

عرفتُ بالصدفة أنه يمزق دعواتي لحضور المؤتمرات العالمية في الفلسفة وعلم النفس ويعتذر نيابة عني عن حضور تلك المؤتمرات بينما يسافر وحده مصراً على عدم اصطحابي متعللاً بأعذار تافهة.

عبرتُ جسده رعدة خوف، إنه يعرف أن غيابي من حياته سينزل عليه نزول الصاعقة، لكنه يرفض أن يلين ويعتذر ويعاملني برقة ولطف لأن غروره المتصلب يمنعه من الاعتذار، إنه مستعد أن يدمّر حياته ويعاني مرارة فقدان والهجر على أن يتوب عن غروره.

وها أنا أستعمل أسلوبه ذاته، فأحدثه بصوت لا يحمل أي انفعال، صوت متكبر ميت بأنني أريد أن أحقق ذاتي وبأنني أنتظر قبولي كأستاذة محاضرة في جامعة البحرين.

لم أبالِ بنظرته المهددة الحاقدة التي انغrust في وجهي حين قلتُ له إن كل مقالاته وكتبه عن الإيمان بقدرات المرأة وتحررها مجرد كلام كاذب وسخيف وبأنه في أعماقه يسعى لتدمير تفوق المرأة.

أحسستُ أنني أهوي، فانتفضتُ بحفلة، هل كنتُ أحلم؟... أم أستعيد لقطات من حياتي على مهل؟!... وفي هذه الغرفة الغريبة أحسستُ بأمان افتقدته لسنوات، فكل شيء هناك - حيث يسكن المفكر الشهير - مشبع بروحه الميتة.

أعطتني عتمة الغروب الرؤية وبدأت لي حياتي معه أشبه بسحابات من فراغ.... لماذا بقيت معه كل تلك السنوات؟... ألاني أقنعتُ نفسي أنه قدرتي؟... هل آمنتُ أنه عظيم لدرجة لا أتحمّل التشكيك بعظمته مهما بدر منه؟!...

كم كنتُ مضللة إذا اعتقدتُ أنني سأبلغ سماءاً ورقياً نفسياً وفكرياً بزواجي منه!... لكن السنوات تتابعت ولم أصل إلا إلى ظلمة روحه... من العار حقاً أن أكون تعيسة لهذه الدرجة، أن أتجاهل حاجتي للإشباع العاطفي والجنسي، لكن هل نفع الندم يوماً؟!...

خرجتُ إلى الشرفة، شهقتُ مفتتنة بروعة الغروب، كانت الشمس مرآة روحي بيهائها وكبريائها، روحي تستفيق من غيبوبتها، وعيتُ بعمق حريتي، أحسستُ روحي رشيقة كسنبله، ضحكتُ من كل قلبي فنومي لساعات طويلة دليل استعادتي لعافيتي النفسية، دبُّ في نشاط كبير، ارتديت ثيابي بنفاذ صبر ولم أنتظر حتى أسرح شعري أو أتزين. وحين لم يلبِ المصعد ندائي المتلهف هبطت الدرج

بقفزات كبيرة، بحلقت بي عاملة الاستقبال بقلق وهي تراني منطلقة
كالسهم خارج الفندق، لحقني صوتها المثلّيف: خير يا مدام هل...
قلت: تأخرتُ عن موعد هام.

- هل تريدان مساعدة؟

ضحكتُ منتشية، لوّحتُ لها وأنا أقفز إلى الرصيف....
لا يا عزيزتي، لا أحتاج لمساعدة أحد، لأن مواعيدي في اللامكان،
حيث سأنزع جلدي القديم وأجعله كفنًا للأستاذ....

سراب

كانت تتأمل ظلال الأغصان والعصافير المغردة التي تلاحق بعضها بعضاً في غابة الصنوبر التي اعتادت أن تمارس رياضة المشي فيها، وحيدة دوماً وحيدة أبداً، لكنها هذه المرة أحسّت أن هذه الظلال هي تعاريج أفكارها ذاتها، التي تدور حول حلقة مفرغة. توقفت عن المشي لاهثة وشعور مباغت بالغضب تفجّر فجأة في روحها على غير توقع منها. داست بقسوة على أوراق الصنوبر التي تفرش الأرض فأصدر تكسرها أنيناً. فكرت وشرارة الغضب تكتسح كيانها أن عمرها هُدر وهي تفكر بالأشياء ذاتها التي تتمنى القيام بها لكنها تعجز. أحست بعطش وندمت كونها أكلت قطعة شوكولا قبل رياضة المشي. سم الغضب روحها، ففقدت شهية المشي.

جلست تحسّ شجرة صنوبر ضخمة وأخذت تكسر الأوراق الإبرية بخشونة وقسوة وثمة قرار غامض يتشكل في روحها، كانت تردد بتصميم حماسي عبارة: آن أوان التغيير، لم أعد قادرة على تحمّل هذا الشكل الباهت اللاإنساني لحياتي.

تنبّهت لحقيقة أفرعتها وهي أن مشاعرها صارت متبلدة تماماً، لا شيء يفرحها ولا يثيرها، فكرت أنها عاشت سنوات شبابها وكفاحها الطويلة متسائلة كل يوم: ماذا أنوي أن أفعل بحياتي؟ ولم تفعل شيئاً في الواقع سوى أنها نزفت كل طاقتها الحيوية كي تؤدي الدور المقدس

الذي أقنعوها أنها نذرت لأجله: أم قدرها أن تترمل وهي في الثالثة والثلاثين ولديها ثلاثة فتيات يتحلقن حولها راسمات دائرة تسجنها في مركزها.

منذ وفاة زوجها أحست بواجب نبذ أنوثتها، وأن عليها أن تنسى أنها امرأة تكتمل برجل، كانت تتخيل دوماً أن ثمة حزام عفة حديدي تلبسه، ومفتاحه في يد غول يده ضخمة ومعروقة هي يد المجتمع. بالغت في إحساسها بالمسؤولية، وتفانت في خدمة بناتها... سمعن مثل ورقة السيجارة، أقل كلمة تمزقها... أقنعت نفسها أنها بقدر ما تضحي وتعطي تكون عظيمة... أليست اللجنة تحت أقدام الأمهات... هل يوجد أروع من أن تكون المرأة أما!

طوال سنوات كانت تشعر أنها جندي في معركة، كل صباح تشحذ قواها وتأهب لخوض يوم شاق، تعطي وتعطي، ماضية في كفاحها حتى النهاية.

أعطت للجميع انطباعاً أنها امرأة قوية، ومستقلة، عارفة وحدها أنها هشة مثل هذه الأوراق الإبرية التي تكسرها بقسوة.

وفي لحظات نادرة، كانت تتمتع برؤية كاشفة لقراءة أعماقها بوضوح متحدية رقابة عقلها الذي حاول دوماً تشويش أعماقها، في تلك اللحظات النادرة تتمكن من رؤية الزخم الأنثوي الكبير المقموع داخلها، وتلامس تلك الطاقة العملاقة في أعماقها والتي يسعى العقل لسحقها وتقويضها.

فكرت أن الأنوثة طاقة، بل إنها الذكاء الخاص للمرأة، تذكرت كيف ذوت روحها في كفاحها عاماً بعد عام من أجل تربية بناتها تربية مثالية - كما يريدون - لم تنتبه كيف فقدت عفويتها فصار كل شيء يضجرها، ولم تعد تضحك من قلبها...

حتى حين تتلقى تقدير بناتها، وفخرهن بها، كونها كرسَتْ حياتها
لخدمتهن، تحس بالضجر وتقاوم رغبة عنيفة بالسخرية من كل تلك
القيم التي اتبعتها بدقة متظاهرة أنها مؤمنة بها في العمق!

لم تنتبه أن نحلة تسللت من فتحة قميصها ولدغتها في كتفها،
أيقظت فيها تلك اللدغة المبالغتة شهية عارمة للحياة، لتحرير مشاعر
دفنت عميقاً في النسيان انتفضت واقفة وابتسامة غريبة تعلو وجهها،
سرحت في قرص الشمس الناري المثير، أحست أن حلاوة الحياة رائعة
حقاً، بل أحست بطعم حلو في فمها.

عادت إلى بيتها، دخلت غرفتها ورمقت سريرها البارد بكره،
حسبت أنه مضي خمسة عشر عاماً لم يلمسها رجل! لقد ختنوها
جسدياً وعاطفياً دون أن يحتاجوا لمبضع جراح، صار الرجل مثل كائن
خرافي بعيد بعيد ليس له وجود حقيقي في حياتها، لقد فقدت ذاتها في
رحلة نضالها التي توجت بعدها أم مثالية وإنسانة مهشمة في الداخل.

تفوقت بناتها في دراستهن، وخُطبت اثنتان لشابين يتمتعان بكل
صفات العريس اللقطة، رفعت سماعة الهاتف لتدير رقماً، ولم تبال
بصيحات التحذير والاستنكار تنفلت كصفارات الإنذار من عقلها.

أناها صوته متفاجئاً لكن سعيداً، كان زميلاً لها التقته في دورة
تدريبية للمعلمين... تذكر أنهما تحدثا مطولاً في كل شيء... وخلف
عبارات الحديث العادية والمنمقة كانت ترسم مغامرتها، وتخيل كيف
سيلتقيان...

نمت الأمور كما توقعت تماماً، ادّعت أنها تستفسر حول قضايا
تعليمية، وانتهت المكالمات بأن تواعدا على اللقاء، من حسن الحظ أنه
يسكن مدينة تبعد عن مدينتها ساعتين، المهم أنه غريب، ولن يعرفه
أحد، حين سيتسلل إلى شقتها.

نقعت جسدها لساعتين في ماء فاتر معطر، اشترت ثياباً داخلية
مثيرة من الساتان والدانتيل... وحين جلست لتنتظره، لم تستطع كبح
هيجان طوفان من المشاعر المثارة والمُبتهجة... حضرت مائدة شهية،
من أفخر أنواع الأسماك والمقبلات... ولم تنس الموسيقى الرومانسية،
وزجاجة النبيذ الأبيض الثلجة...

توقعت أنه سيدخل بيتها حاملاً باقة كبيرة من الورود الحمراء،
لكنها سرعان ما عذرته لأن باقة الورد ستلفت الأنظار وتفجر
الشائعات... وضع كيساً على الأرض فابتسمت عارفة أنه يضم هدية
لها... أحست بشهوة حارقة أن تلمس جلده الأسمر وعضلاته
المشدودة، تأملته بشوق وهو يأكل السمك بشهية ويشرب النبيذ، قبل
يدها ممتناً، فسرت شرارة في جسدها من ملمس شفثيه الدافئتين.

أشار إلى الكيس بخجل وقال: إنه لك.

شكرته، وأخرجت محتوياته، فوجئت وهي ترى سبعة قطارميز
متماثلة مختلفة في اللون، سألت: ما هذا؟...

قال إنه يعمل عملاً إضافياً في معمل للفازلين، وبأنه أحضر لها
نماذج من الفازلين الممتاز... فازلين بالنعنع، وآخر بالورد، وآخر
بالحبق...

سألته بسخرية وهي تقاوم خيبة أمل مرّة: ولم كل هذا التنوع...
لم يجد ما يرد به فضحك.

أحست بالقرف وهي تنقل نظرها بين مائدتها الشهية، وهداياه
الشحيحة لكنها وجدت نفسها تتجاهل إحساسها بخله، لأنها مصممة
على خوض تجربة تعرف كم هي ضرورية وإسعافية لها... تريد أن
تلمس هذا الكائن الخرافي المنفي من حياتها تريد رجلاً... ببساطة ومن
دون تعقيدات الأخلاق. تريد رجلاً يرمم شروخ روحها ويعيد

الالتحام بين أنوثتها وإنسانيتها. أصرت على الظلام حين وجدا
نفسيهما فوق الفراش، لا تملك المرأة أن يرى جسدها في النور،
جسدها الذي لم يعد فتياً...

شعرت أن عقلها يُشَل، وأن نسغ حار أخذ يتدفق ببطء في
عروقها...

بدت مبهورة بالعناق الحار، والجسد الجميل الملتصق بها، شعرت
أنها تقف على حافة جرف عميق لا قرار له، وبدت لها سنوات
عمرها الطويلة التي لم يكن في قلبها رجل مرعبة حقاً... ثمة رعب فظيع
يتفجر من سنوات عمرها...

لم تتوقع أن جسدها المتخشب من الحرمان، وغريزتها المودعة في
ثلاجة سيولد منهما كل تلك الحيوية، أدهشتها تلك المرأة المعطاءة
المتفجرة بالأنوثة والرغبة...

أهي حقاً تلك المرأة!! وحين ولجها شعرت أنها تستعيد حياة
أخرى عاشتها في زمن آخر، كانت مبهورة ومثارة حتى الحدود
القصوى، ولم تتوقع أن وصلها مع هذا الغريب سيكون بتلك الروعة
المدهشة... ضحكت حين رقد بجانبها، يمسح العرق عن صدره، سألتها:
لماذا تضحكين...

سيطرت على نوبة ضحكها بصعوبة وقالت: أحس بصدمة المعجزة.
سألتها إن كانت تمنع أن يشعل سيجارة... رحبت بفكرته،
وأخذت ينفثا الدخان شعرت أنها بطلة في فيلم، أغمضت عينها متحسّسة
نشوتها العميقة وتلك الطراوة الخلابة في جسدها ومشاعرها، همست
لنفسها: الآن أحياء.

قامت إلى المطبخ لتحضر صحن الفاكهة... حبات كرز قرمزية
لذيذة، لكنها حين أمسكت صحن الكرز، صعقت، كانت عيونهن

تحديق في وجهها باحتقار ولوم فظيعين... ياه كيف تقمصت عيونهن
حبات الكرز، سقط الصحن من يدها، وتبعثر الكرز على البلاط...
صرخت متحدية:

- لم أذنب بحقن...

صرخن: ماذا، أنت أمنا، شرفنا، عرضنا، كيف، كيف تطوحين
بشرفك وشرفنا وتضاجعين غريباً...

صرخت: اخرسن، أنا من لحم ودم.

عادت إلى الفردوس، حاملة الفاكهة المحرّمة، التهم بضعة حبات
من الكرز وعاد ليشدها إلى جسده المتين، استأنفا وصلاً محموماً...
شعرت أن جسدها يُزهر روحها أيضاً... ياه ما الجسد، وما الروح؟!
أدهشها أنها فاعلة، تغزو وتقتحم وتبادر، كانت أنثوية بشكل
عميق وحقيقي.

همس في أذنها: أنتِ من النوع الذي يعبهه الرجل.

همّت أن تسبح له أن نشوتها معه كانت هائلة، لكنها أثرت
الصمت... كانت أحاسيسها متوهجة وهي تعي روعة الانسجام بين
جسديهما... أدهشها أن جسدها يستيقظ من سبات طويل طويل،
جسد لا يزال ينبض بالحياة والحب... ياه بدا لها عمرها رمادياً فاتراً،
فكرت: لم أكن سوى ميتة ناجحة... راق لها هذا التعبير... أجل ما أنا
سوى ميتة ناجحة.

حين ودعته وهي تلف عنقه وتقبله قبلات نعمة، قالت له
ضاحكة: هل سمعت عن حبة الخنطة التي وجدوها في قبور الفراعنة...
سأل: ما قصتها؟

قالت: تصور رغم مرور آلاف السنين، لكن حين زرعوا الحبة
أورقت.

نظر متسائلاً عن مغزى تلك القصة...

انفجرت بضحك صاخب وهي تقول: حبة الحنطة هي جسدي.
اتفقا على اللقاء بعد أسبوع، من حسن الحظ أن بناهما في رحلة
سياحية إلى اليونان...

اشترت له قميصاً وردياً جميلاً، وربطة عنق كحلية... فكرت أنه
سيحضر لها هدية قيمة بالتأكيد...

لكنه حين دخل بيتها كان يحمل بيده كيساً، وقبل أن تسأل...
جرفتهما الشهوة إلى تشعباتها والتواءاتها، كانا يعيان مدى الانسجام بين
جسديهما، نادراً ما يُخلق هذا التناغم الساحر بين رجل وامرأة، كانت
تشعر أنها تخزن كل لمسة وكل تهيدة وكل تقلص عضلة في أعماق
روحها، في ذاكرة روحها وليس ذاكرة عقلها... وصلت مراراً لنشوة
عميقة، نشوة طردت عن سنوات العفة القسرية...

وحين اتجهت إلى الحمام، لم تعرف وجهها في المرأة، كانت
مُزهرة، وردية مفتحة، آمنت أنها صغرت عشر سنوات على الأقل...
قدّمت له القميص وربطة العنق، فقبلها بامتنان... ولم تعرف أي
حلم جعلها تؤجل فتح الكيس حتى ينتهي من عشاء لذيذ انشغلت
بتحضيره يومين...

أكل مستمتعاً وأثنى على طبخها الشهوي...

سألته: هل هذه هدية لي...

ابتسم: أجل...

صعقت إذ وجدت أن الكيس يضم عدة قطارميز من الفازلين...
ودّت أن تبصق بوجهه، أيعقل أن يكون بخله مريعاً لهذه الدرجة... ألا
يفسد أن يشتري هدية لائقة لها! أيجزر لها هدايا لا تكلفه قرشاً لأنه
يأخذها من المعمل الذي يعمل فيه...

كبحت ثورة غضبها، وتجاهل تعب القرف والغضب في وجهها...

أحس بارتباك فقال: هذا الفازلين أفضل من السابق، إنه نقي و...
قاطعته: لكن ماذا أفعل بكل هذا الغزو الفازليني...
أربكته سخريتها: قال: أعطها لصديقائك... أو...

نأت عنه، فكرت لعله يعتقد أن امرأة على أعتاب الخمسين لا تستحق هدية، امرأة دعتة إلى وليمة استثنائية، وهبته جسد معتق بالأشواق... لعله يحتقرها بأعماقه كونها ضاجعته بتلك السهولة...
لكن ألم يكن مثاراً وسعيداً مثلها، ثم إنه في عمرها... فلم يتكبر عليها؟!؟

لم تفهم أي رغبة دفعتها لتحضر الكاميرا، كان يتأملها بدهشة، وهي تستف قطارميز الفازلين على المائدة، خلف بقايا سمك وصحون مازوات لذيذة أخذت تلتقط صوراً للمائدة...
سألها: ماذا تفعلين؟

قالت: ألتقط صوراً كما ترى!

- لكن ما معنى هذه الصور!!!

- أوف، صعب أن أشرح لك، لكن أظن أن بيكاسو لو كان حياً لأعطاني جائزة ألا ترى أي إبداع بين قطارميز الفازلين ومائدة طعام؟!؟

- لا، لا أرى أية علاقة بينهما!

ضحكت بمرارة... همت أن تتكلم لكنها آثرت الصمت، كان طعم المرارة في فمها لا يحتمل...

وحيدة مع جيش من قطارميز الفازلين، حائرة، تحس بخيبة ومرارة...

لم ترغب بالتفكير، تحس بتعب أشبه بوخز في كل جسدها...
أغمضت عينيها مستسلمة لتدافع صور عشوائية تنهمر أمام
عينها...

مرّت سنوات عمرها بلحظة... هل أغفت أم كانت تحلم...
لكنها حلمت أنها تقطف وردة حمراء رائحتها مُسكرة... وحين قربتها
من أنفها لتشمها طفت رائحة فازلين خانقة، تسلفت من أنفها وفمها
وملأت صدرها خانقة كل شعور يطمح بالفرح...

عطر الحب

قبول القرار الذي اتخذته زينب بالاستهجان والاستغراب معاً،
لدرجة شعرت أنها مطوقة بنظرات أولادها وزوجها الساخطة، لكنها
في أعماقها شعرت بشيء من السخرية من استيائهم، فلن تتراجع عن
قرارها حتى لو اكتشفوا كذبتها.

اتخذت قراراً بأن تأخذ إجازة من المؤسسة الزوجية لعدة أيام، لم
تكن تستطيع أن تقول لهم بصراحة: "اسمعوا، أنا على شفير الانهيار من
الإرهاق، وأشعر كما لو أنني حمار الطاحون، فمنذ خمسة عشر عاماً
أعمل على خدمتكم بشكل متواصل... ياه أريد أن أرتاح، أن أفر
منكم بضعة أيام كي أرمم نفسي وأشحن بطاريتي" ما كانوا ليقتنعوا
بكلامها، فاضطرت لاختلاق كذبة، بأن زوج أعز صديقات طفولتها
قد توفي وعليها أن تسافر إليها في بيروت، تحديداً في قرية قريبة من
بيروت.

حاكت كذبتها دون أن تهتم بأمر افتضاحها، تحدث زوجها الذي
تعتقد أن متعته الوحيدة في الحياة هي إدانة الناس وتقصي عثراتهم،
كانت تتخيل برود نظراته الشامتة وهو يقول لها: "يا سلام المربية
الفاضلة تكذب!".

دون أسف باعت السوار الذهبي الوحيد الذي تملكه، والذي
قدمه لها زوجها يوم عقد القران، سوار مؤلف من حلقات ثخينة

منشابة مع بعضها، فكرت وهي تقبض ثمن السوار، دون أن تشعر
بذرة ندم، أن حلقات ذلك السوار المتداخلة مع بعضها تشبه سنوات
حياتها التي تتلاحق في خدمة أحبائها، شعرت براحة وهي تتخلص من
ذلك السوار كأنها تقطع آخر رباط لها مع المؤسسة الزوجية.

لم تكن تعرف بيروت إلا من خلال التلفاز، وبمساعدة صديقتها
الوحيدة في العمل، اتفقت مع سائق تاكسي ليمر بها فجراً لتسافر إلى
مدينة أهم ما فيها أنها لا تعرف فيها أحداً... دلتها صديقتها على
عنوان فندق...

لم تصدق أن كذبتها نجحت إلا حين جمعت بعض ثيابها في حقيبة
وأولادها متعلقون حولها ينظرون إليها بافتقاد وعتاب. ابنها الصغير ما
كان يستطيع أن يغفو إن لم يلامس جسده جسدها، طوّق عنقها،
والتصق جسده النحيل بجسدها قائلاً:

"ماما، أول مرة تتركينا..."

قبلت خديّه بنهم كعادتها، قبلات يسميها أولادها "كاسات هوا"
قالت له:

"لن أغيب سوى أيام قليلة وسأشتري لك هدايا كثيرة".

نجحت خططها يسر لم تتوقعه، ورغم أن كل شيء مرّ بسلام فإنها
شعرت بذعر حقيقي حين انطلقت بها السيارة مبتعدة، شعرت أن قرارها
بالسفر كان متهوراً وتمنت بحماس أن تنال عقابها لتكفر عن ذنبها بترك
أولادها، وكى لا تأسرهما مشاعر الإثم وتأنيب الضمير تجاه أولادها.
ذكرت نفسها بأنها طبخت لهم سلفاً عن ثلاثة أيام، وغسلت ثيابهم
وكوئها، لمعت الزجاج ومسحت الأرض، فلن يرهقهم أي عمل...

كان الطريق إلى بيروت موازياً للبحر، ظلّ نظرها معلقاً بالبحر
طوال ساعات السفر، وحين عبرت الحدود غاص قلبها في أسى عميق

وهي تعي أنها لم تسافر أبداً طوال حياتها، بل زاد في أساها إحساسها أنه كان يمكن لعمرها أن يمضي على الوتيرة ذاتها لو لم تخترع كذبة لتسافر خارج سجن الحب، عند هذه العبارة همدت أفكارها، أجل، ما الأسرة سوى سجن الحب؟ مطلوب منها أن تعطي وتعطي وتعطي، محرم عليها أن تتعب، يجب أن تكون كالإسفنجة التي تمتص حتى لو اختنقت من السائل.

كانت متكومة في مقعدها، تسند جبينها إلى زجاج النافذة، تحبس نفسها في الصمت كما لو أنها في درع، لم ترغب في تبادل الحديث مع الركاب مكتفية بحوارها الصامت الحميم مع البحر. لم تحدد طبيعة مشاعرها وهي تتعرف للمرة الأولى على طبيعة لبنان الساحرة، أحست أن مشاعرها عميقة مخترقة داخلها ومتشابكة لدرجة يصعب عليها تحديد ماهيتها. لم يغادر أطفالها ذهنها لحظة واحدة كانت معهم في كل تحركاتهم، أثناء فطورهم واغتسالهم وذهابهم إلى المدرسة شعرت بغربة ودهشة حقيقتين وهي تنتبه لأول مرة في حياتها كيف أنها حاضرة في كل شيء في حياتهم، أصابتها تلك الحقيقة التي داهمتها متكئة عبر خمسة عشر عاماً بدوار حقيقي، أغمضت عينها مستسلمة للدوار العاطفة العاصفة التي تربطها بأسرتها، وعت بكل كيانها المتهالك من التعب أنها صرح هذه الأسرة، حجر الأساس فيها، وبأنهم لا يكونون إلا بها.

أنهكتها انفعالاتها طوال الرحلة، فوصلت إلى الفندق منهكة، بقلب ثقيل ومشاعر متضاربة تثقل كاهلها وتجبرها على إحناء كتفيها قليلاً. الغرفة مريحة، نظيفة ومن الشرفة يطل بحر بيروت ليزيد من إغوائها بالحرية، أسدلت الستائر الداكنة المضاعفة، واستلقت على سرير هروبا، مسلمة نفسها للعمة الرطبة اللطيفة تجردها شيئاً فشيئاً من

طبقات متراكمة من القلق والتوتر، وصور أولادها التي تخزها دوماً بمشاعر تأنيب الضمير، عاودها إحساسها بذاتها، اكتشفت فكرة أدهشتها، وتمنت لو تملك الهمة لتقاوم استرخاءها وتسجلها: "الحب أفقدني إحساسي بذاتي" هذا ما أكدته لنفسها وهي تعي كيف أن الأم مجرد صدى لأولادها تفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم، أما هي فتفرغ، تصير قرية جوفاء... أجل خمسة عشر عاماً من الحياة في جنة الحب الأسري فرغتها تماماً، إنها تشبه بئراً جفت. غرقت في النوم بعكس توقعاتها بأنها ستأرق ولن تتمكن من النوم في سرير غير سريرها، لكن حين أيقظها شعور بالجوع أدركت أنها نامت بعمق كما لو أنها ضحية سبات، نظرت في ساعتها، الرابعة والنصف بعد الظهر، اتصلت بعائلة الاستعلامات لتسألها إن كان المطعم لا يزال يقدم وجبة الغذاء.

أجابتها الموظفة بلطف دافئ: أجل.

بدلت ملابسها، كان المطعم في الطابق التاسع، اختارت زاوية مظلة على البحر وتأملت بيروت المسترخية على الشاطئ والمتسرلة بضباب خفيف، تفجرت فجأة حيوية هائلة في روحها، حيوية مخزنة منذ سنوات وسنوات. طلبت بيرة وأكلت بشهية، مازحت نفسها بدعابة: كم مرة يا زينب تناولت طعامك دون أن تقومي عن كرسيك مراراً لتبلي طلبات زوجك وأولادك؟ أسعدها أن تُخدم، تذكرت أنها وعدتهم أن تتصل بهم لتطمئنهم عن وصولها، كادت تنسى كذبتها، ذكرت نفسها أنها في قرية قرب بيروت لتعزية صديقة بوفاة زوجها.

حين أتاها صوت ابنتها البكر أحست أنها ترتد إلى سجن أسرتها، أرادت ابنتها أن تقحمها في تفاصيل شجارها مع أخيها، حدثت نفسها: "يريدون إشراكي بمشاكلهم حتى لو كنت بعيدة".

ابنها الأكبر طلب رقم صديقتها فراوغت وادعت أن الاتصال صعب، أما صغيرها حين حان دوره وانتزع السماعة فقال لها جملة وحيدة: "هيا عودي".

ارتعش قلبها وهي تعي كم يحتاجها، حاولت أن تطمئنه أنها ستعود قريباً محملة بالهدايا، لكنه قال بحزم: "أريد الماما ولا أريد هدايا".

ابتدأت رحلة الحرية بالتسكع في شارع الحمراء، تتوقف طويلاً عند الواجهات مفتتة بالمعروضات، تقارن بين الأسعار هنا وهناك، وكلما مشت عدة أمتار تستدير للخلف لتذكر نفسها بطريق الفندق. كانت نشوتها عميقة وغامضة في آن وأحست أن جناحين نباتا لها في ظهرها، وأنها خفيفة كفراشة، تنبث بعد ساعتين من تسكعها أن هناك شيئاً لا يقل روعة عن الحب وهو الحرية، شعرت كما لو أن روحها أرض مشققة بالجفاف، والحرية أشبه بمطر يملأ تلك الشقوق.

وجدت نفسها أمام سينما رو كسي، وبدون تردد اشترت بطاقة لتحضر فيلم العاصفة ليسرا ممثلتها المفضلة، تذكرت بأسى كيف أنها محرومة من السينما في مدينتها الكئيبة، وتمنت لو كان أولادها معها، تأثرت بقصة الفيلم، وبتمثيل يسرا المتفجرة بالأحاسيس، لكن بكاءها المتواصل طوال الوقت لم يكن بسبب انفعالها بالفيلم، بل لأشياء كثيرة في حياتها ضاعت في الإهمال وفي زحمة اهتماماتها الأسرية.

خرجت من السينما متورمة العينين، مندهشة من عاصفة بكائها، جلست في مقهى رصيف أمأ وحيدة بحاجة أن ترمم ذاتها وتحاور نفسها، طلبت كأساً من عصير الجزر، فيما لا تزال تبتلع دموعها للداخل متسائلة عن سر عاصفة بكائها، لكن كم من الأشياء تستحق أن تبكي عليها، كم تشعر أنها ضيعت أجمل ما في روحها في سبيل أسرتها؟!

هدأت بعد أن رشفت كوب عصير الجزر البارد الذي أطفأ لهيب روحها.

رغبت أن تتمطى بقوة أمام كل الناس، أن تتشاءب بعمق وتقول بصوت عالٍ ياه ما أحلى الحرية، وفي ساعة متأخرة من الليل عادت إلى الفندق، قلبت محطات التلفاز بلا مبالاة، استحمت وهي تغني طوال الوقت مستعيدة تلك الصفة التي كانت تتمتع بها أيام العزوبية، لم تردد ملابسها في الحمام كعادتها، بل خرجت إلى الغرفة تحيط جسدها بمنشفة، أسقطت المنشفة أرضاً وتفرجت على جسمها في المرآة الكبيرة للدخول، صدمها غريبها، ورغم أنها لا تزال محتفظة برشاقتها إلا أنها أحسست بحزن عظيم وهي تتأمل نديها، أمسكت نسيجهما الرخو، عصرتهما براحتيهما، يا لطعم المرارة الذي تشعره، وهي تتذكر كم كانا شائخين ومتينين، تذكرت سنوات زواجها الأولى التي قضتها مسممة بالغيب بسبب تحولات جسدها المتفخ بالحمل والمترهل بعد الولادة، واحتقان نديها المؤلم بالحليب، ثم قهقهما وارتخائهما.

كان زوجها يضاعف غيظها، لأن لاشيء تبدل في جسده بعد الزواج، إن الطبيعة ظالمة حقاً ومنحازة للذكور.

أفاقت في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، طلبت الفطور إلى غرفتها وتناولت قهوتها على الشرفة متأملة الناس في سعيهم الدؤوب، فكرت أن البشر يتشابهون في كل مكان، كانت تتذوق مع قهوتها طعم الحرية، شعرت أنها ستعيش حالة سمتها "فتنة الحرية".

مرّ أطفالها بمخيلتها غارقين في الضباب، حيثهم بحب لكنها رجتهم أن يتركوها مستمتعة بوحدها، تنبّهت لمتعة الصمت حيث يمكنها أن تسمع صوت أعماقها حاولت أن تفحص مشاعرهما تجاه زوجها، عجزت، لتعترف أنها لم تشتق له وبأنها لم تعد تحبه، ما بالها

مرتبة هكذا؟ فهو لن يتمكن من محاسبتها على أفكارها تذكرت
بمرارة كيف تهب جسدها كحق له، كما لو أنها مدينة له بتلك الممارسة
الفارغة... لولا الأولاد لهجرته...

تنبّهت لنظرات نزيل في الفندق تراقبها، كان يدخن الغليون في
الشرفة، ورغم نظارته الشمسية السوداء فإنها شعرت أن نظراته مثبتة
عليها، تذكّرت أنها التفتت مساء البارحة عند باب المصعد وبأنه حياها
بإيماءة من رأسه، قدرت أنه على أعتاب الخمسين، وأسعدها أنها لا
تزال قادرة على إدارة الرؤوس إعجاباً، وجدت أنها تفكر به في تسكعها
الجميل بعد الغداء كاحتمال غواية... استعادت بذاكرتها لقطات بعيدة
لرحلات صيد كان زوجها يقوم بها مع رفاقه تستمر ليومين أو ثلاثة
أيام، ترى هل كانت رحلات صيد؟ أكانوا يلاحقون الخنازير والطيور
أم النساء؟!

وإلا ما معنى الأحاديث الغامضة والتعليقات الجنسية والغمزات
المبطنة التي كان الأصدقاء يتبادلونها، إنها واثقة أنه يخونها، وقد ساعدتها
الصدف أن تكتشف أكاذيب كثيرة لفقها أمامها، لكنها لم تشأ أن
تواجه تلك الحقيقة لعجزها عن تخيل انهيار أسرتها، إنها تعبد أولادها،
ومستعدة أن تتحمل كل طعنات الألم في سبيلهم.

اشترت فستاناً أنيقاً يجمع بين اللونين الأحمر والأبيض، ارتدته
وأفردت شعرها الطويل الذي تعقسه دوماً في خصلة ثخينة تنسدل حتى
منتصف ظهرها، قررت أن تحضر مسرحية، تذكّرت أنها منذ عشرين
عاماً لم تحضر مسرحية، اشترت دخاناً خفيف النيكوتين رغم أنها لا
تدخن، لكن بدا لها نفث سيجارة من مستلزمات ديكورات الحرية، لم
تبك ذلك المساء في المسرح، بل استمتعت تماماً، وحين تسلمت مفتاح
غرفتها من عاملة الاستقبال، أحسّت بشيء يحرقها بين كتفيها استدارت

لستجده يحدقُ بها، لم يكن وجهه يعكسُ عاطفة أو انفعالاً، لكنها قرأت
رغبة عميقة في عينيه بأن يكون قربها ويحدثها، تجاهلته وانجهمت بخطوات
ثابتة نحو المصعد، وحين رمت فستانها جانباً وأشعلت سيجارة لتنفث
دخانها بتلذذٍ فكرت: ما الذي يمنعها حقاً من خوض التجربة مع رجل
آخر غير زوجها، ورغم أنها أرادت أن تستفزع الفكرة وتزجر نفسها،
إلا أن الخطيئة بدت لها فاتنة حقاً، لِمَ لا تجرب رجلاً آخر غير زوجها؟
ألا يحق لها أن تخونه مرة واحدة مقابل خياناته الكثيرة لها؟

ولماذا يُنظر لخيانة المرأة كجريمة، أما خيانة الرجل فيجدون لها مئة
مسيرر... فتحت البراد وأخرجت زجاجة بيرة، شربتها مستمتعة بذلك
الاسترخاء اللذيذ الذي يولده الكحول في أطرافها، تساءلت: هل
تستحق الحياة أن تؤخذ بكل تلك الجدية؟

عادت للفكرة المتحدية التي تحاصرها "ما الذي يمنعها من خيانة
زوجها؟" الخيانة تكون لرجل تحبه، أما هي فلم تعد تحب زوجها، لكن
كيف تخون مع رجل غريب لا تعرف عنه شيئاً؟ وجدت نفسها تفكر
به قبل أن تغفو، بل أسعدها أنه رآها بأجمل صورها...

صباح اليوم الثالث لرحلة حريتها، تعارفاً، قدّم لها نفسه ببساطة،
وجدت نفسها ترحب به ليتناولوا الإفطار معاً، ارتاحت للتحدث إليه في
مدينة الغرباء، أسعدها أنه لم يسألها أي سؤال شخصي، فحذت حذوه،
لم تمنع حين دعاها لمرافقته لزيارة متحف جبران خليل جبران قرب
إهدن، جلست بجانبه في السيارة الفخمة وصوت مطرب يوناني يفجر
فيها أحاسيس غير متوقعة، اكتشفت أن هذا الغريب يحرك فيها
أحاسيس اعتقدت أنها ماتت وبدأت جاذبية خجولة تنمو بينهما
ينجاهلها بقسوة نسيت أسرتها تماماً، كأن دهرأ يفصلها عن أحبائها،
وتآلفت مع الغريب لدرجةٍ شعرت أنها تعرفه منذ دهر...

كانت مبهورة بالطريق الجبلي الساحر، برسوم جبران وروحها التي تطوف في المكان، تناولوا عشاء خفيفاً في مطعم يقدم مأكولات بحرية، وحين دخلت غرفتها كانت منهكة من سعادة مباغتة وغريبة، تذكرت أنها لم تتصل بأولادها لتطمئن عليهم، لكنها لم تشعر بالتقصير، فليتركوها تستمتع بحريتها مع الغريب، كانت تعرف أن خيالات عاطفية رقيقة تحول بذهنيهما وأنهما سيستسلمان للنوم على أمل أن يتلامسا في اليوم التالي، لكن أول شيء فعلته حين استيقظت أن اتصلت بأولادها تلبلت من القلق حين أخبروها أن الصغير استيقظ وحنكه متورم بشدة، إنه النكاف كما شخّص له الطبيب، وهو يعاني من حرارة... بلحظة كانت قد جمعت ثيائها في الحقيبة، دفعت الحساب لعاملة الاستقبال، ورجت سائق التاكسي أن يسرع إلى محطة الباصات، كانت دموعها تنهمر كاوية، تمسحها بظهر يدها... دفعت للسائق أجرة راكبين ورجته أن يسرع، سخرت من أيام السخرية التي قضتها في بيروت أحسبت أنها تكسو نفسها بثوب مخادع، كان حبها لصغيرها طول طريق العودة يسيطر عليها ويغمرها بنشوة تذهب بعقلها، مرّ بذهنها الغريب يتناول إفطاره وحيداً ينتظرها، ابتسمت باستخفاف للأفكار العابرة والغريبة عن جوهر كيانها والتي مرت بذهنها البارحة، إن جوهر كيانها أم...

كانت يداها المحيطتان بحقيبة يدها ترتجفان من الانفعال، فكرت بأنها لن تعطي جسدها لرجل آخر لتحافظ على نقاء روحها وجسدها من أجل أطفالها، وليس لأجل زوجها، إنها تعي تماماً كيف أن لا طعم لحياتها دونهم، وأن تعبها الطويل في سبيلهم هو الذي يغني روحها ويجعلها صامدة ومطلقة وعظيمة، صار نفاذ الصبر يلسعها، غاية ما تريده أن تضم الصغير المريض إلى حضنها، ستقبله قبلاهما "كاسات الهوا".

محاذرة أن تسبب له الألم، ستدله وتحضر له المأكولات الخفيفة، وحلوى الزبيب واللوز التي يحبها، كم تمنى أن تسهر بجانبه طوال الليل منصتة لإيقاع تنفسه، وأن يمد يده وهو نائم باحثاً عنها بقلق، ليستكن ويتابع نومه حين يلمسها...

أية حسرة مخادعة أرادت أن تعيشها؟ كم تشعر بذلك اللهب المتأجج من عينيها تشعر به دون أن تراه، لب الحب، لا يوجد أروع من أن يعيش الإنسان لب الحب... صارت أنفاسها تتخذ إيقاعاً حماسياً، فجأة غزت أنفها رائحة عطر ساحر التفتت تبحث عن مصدره، سألت السائق والركاب عن مصدر تلك الرائحة الذكية أبدوا دهشتهم، واضح أن أياً منهم لم يشم تلك الرائحة، ابتسمت وهي تغمض عينيها متشنجة من السعادة، إنه عطر الحب.

الصغير ينار في سرير إعاقته

لقد أهديتني إعاقتك كي تحميني من أكبر رذيلة الكبرياء.
وحسين أمشي كالطاووس، نافشة رياش أفكاري الثورية، يعبر
خيالي طيف جسدك الشبحي الناحل، بمشيتك العرجاء المتعبة، فألملم
نفسي وأمشي باتضاع.

حين أجلس متخمة بإحساسي بذاتي، أبالغ في إرضاء نفسي،
منتشية بتدخين الأركيلة وشرب كأس البيرة المثلجة وأكل المازوات
اللذيذة، متفenne في تفصيل أثواب مبتكرة لأفكاري كي أنتزع
الإعجاب، تطن أذناي بصوتك الحاد أحياناً والواهن أحيان أخرى،
صوت عارٍ من أي زينة، صوت نقي كصوت الريح أو الشلال، صوت
صامت كالدمع، يُعيدني صوتك إلى الكلمة الأولى: الحق.

وحين أرسم الخطط للانتقام من أعدائي، ويلتمع وهج الشر في
عيني، لأنني أدرك بغرور أني سأنتصر وسأسحقهم، ينحرن خيالك
المريض ويصفعني بحقيقتي البشعة، كيف أترك نفسي أنقاد للأحقاد...
أفكر أنك تتفوق علي بإعاقتك التي تحميك من سموم الحقد والكراهة...
طيفك البعيد، يجعل أحقادني ترسب في قاع روعي كطبقة من غبار
أغسلها بدموعي النادمة التي وحدك تفجرها من عيني...

وحين يحملني طموحي بعيداً بعيداً، جاعلاً لي جناحان عملاقان
يطيران بي إلى ذرى هوى الشهرة والنجاح والتألق، أتذكرك فجأة،

فأعود لحجمي البشري. ويلقني مرضك الأبدي أن نسيج جسدي
سريع العطب، وأنا من التراب وإلى التراب نعود...
إعاقتك يا صغيري الحبيب هدية تقدمها لنا نحن الأصحاء المقززون
بأنانيتنا...

نحن الأصحاء الذين نخجل منك، فنواريك عن أنظار الناس، لأن
الأطفال بالنسبة لنا للتباهي، امتداد لأنانا المتغطرس: ابني جميل مثلي،
ذكي مثلي، خفيف الظل مثلي، أما حين يكون معاقاً فأسجنه في
إعاقته... لكنك لا تبالي بخجلنا منك لأن إعاقتك علمتك نعمة
التسامح، حتى حين نشتمك، وتمر بذهننا أفكار قاسية عن رغبتنا
باختفائك التام من حياتنا، لا تتأثر ولا تحزن، تظل تنظر لنا بحب منتظراً
فُتات شفقتنا لنطعمك، ونهدد أوجاع روحك وجسدك كي تغفو...

فطوري لذيد... فطورك مسموم بالأدوية مذ كنتَ رضيعاً...
وأنا أعبر الشارع، وأنا أعبر أيامي وسنوات عمري معتقدة أنني
أحقق إنجازات أتخيلك تعبر الحياة كنسمة بالغة العذوبة والرقّة لدرجة
تخشى أن تقلق راحة أوراق زهرة!

لن تذهب إلى المدرسة، ولن ترفع من صف إلى صف... ولن
يكون لك أصدقاء دراسة، ولن تمارس الرياضة، ولن تتذوق الفن...
ستبقى أشبه بالمادة الخام التي نسي الصانع بردختها وتطويعها، لكنك في
كل لحظة تذكرنا أننا صُنعنا من هذه المادة ذاتها التي شكلت نسيج
الحياة، فتذكرنا بمهية جسدنا وروحنا وتلعب دور ملائكة الحارس
الذي يقينا من غواية عشق الذات.

لا تبصر عيناك الجميلتان إلا القليل القليل، غارق في ضباب
عيناك وروحك وعقلك، لكن من قلب هذا الضباب، أتأملك كيف
تمد رقبتك النحيلة، مرهفاً سمعك نحو جهة ما غامضة، محرّكاً عيناك

في كل الاتجاهات، فأدرك أنك وحدك من يرى الحقيقة وسط الضباب...

سنجح في إبعادك رويداً رويداً عن دائرة حياتنا... وأنت ستجح ومن دون أن تعاتبنا، لأنك لا تعرف ما العتب، ومن دون أن تكرهنا، لأنك لا تعرف الكره ومن دون أن تغضب، لأنك لا تعرف الغضب... ستجح أن تعود نفسك كيف تغفو في سرير إعاقتك الأكثر رحمة من سرير الأصحاء.

الصياد

غالبتي منال:

أتساءل لو كنت هنا، هل كنتُ لأتجرأ وأسقط الستارة أمامك لأريك مسرح أفكارِي وأحاسيسي، التي احتجتُ - أنا نفسي - لفترة طويلة كي أملك شجاعة مواجهتها؟
وكثيراً ما يبدو لي أن مواجهة الإنسان غيره أسهل عليه بكثير من مواجهة نفسه بصدق ونزاهة.

منال الغالية: أنتِ صديقة حميمة رغم سنوات الغربة التي تبعدنا عن بعض، لكن تلك الغربة تحديداً وعملك في مجلة نسائية شهيرة شجعتاني أن أكتب لك خاصة أنك رئيسة تحرير صفحة بريد القراء، وصفحة - عندي مشكلة - كم تعجبنى حلولك للمشاكل يا منال فأنت لا تقدمين حلاً واضحاً كما لو أنه وصفة جاهزة، بل تكتفين بتحليل أسباب المشكلة وكشف دوافع سلوك شخصها، عنده يشعر القارئ من تلقاء نفسه أنه اهتدى إلى الحل، كنتُ أعتقد يا منال أن المشكلة وأفضل استعمال كلمة حالة التي سأرسلها لك خاصة، لكنني فوجئت أن هنالك مئات الحالات المشابهة. لا شيء أروع من البوح الصادق بين الناس، إذاً لم أكن حالة خاصة ومع الزمن اكتشف يوماً بعد يوم أن كل ما نعتبره خاصاً ولا يحدث إلا معنا هو شائع ومشترك بين الناس.

تستحضرني ذكرى بعيدة يا منال، ذكرى تترك في نفسي الآن عكس الانطباع الذي تركته وقتها، غريب أمر الذاكرة، إنها تعيد تركيب الحدث وتغير الإحساس به، أعود لدفتر مذكراتي وأقرأ ما كتبت منذ سنوات في وصف تلك القبة السحرية: كنتُ بحالة الخفاف مستسلمة لذلك العناق الذي أحسسته يرفعني شيئاً فشيئاً إلى السماء منتشية بأنفاسه الدافئة التي تلمح وجهي، وشفته اللتان لا تعطيانني فترة للراحة... الخ لا أستطيع أن أكمل هذا الهراء يا منال، لأنني أحس بالاشمئزاز والقرف - الآن - كلما استعدتُ بذاكرتي تلك القبة.

لماذا نكتب إذاً، إذا كانت الذاكرة تُعيد إنتاج ما نكتبه حسب هــراها؟ هل يجب أن نكتب كي لا نضيع؟ أقول لنفسي هذا الخط خطي، وأنا من كتب هذه السطور، أحس كمن يصفعني، أبعد الدفتر عني، أرغب بتمزيقه، لكنني أعدل عن رغبتني، إذ أحس أني لا أملك الحق في الاعتداء على تلك الإنسانية التي كُنتها.

هل تذكرين تلك السهرة يا منال، كلُّ منا لفقت كذبة محكمة قدّمتها للسلطة العليا - الأهل - كي نتمكن من السهر مع الحبيب، في تلك الليلة كان كل شيء ساحر وحين أستعيدها أشعر أني أستعيد حلماً، ضوء القمر البدر، وأمواج البحر اللطيفة التي تغازل رمل الشاطئ الناعم مصدرة حفيفاً كحفيف القبلات، والبدايات الجميلة لقصص الحب، لمعان العيون، اللمسات الخاطفة، والأحلام التي تحف برؤوسنا كسرب فراشات ملونة.

كم يحزنني يا منال أننا رغم صداقتنا ما كنا لنجرؤ أن نبوح لبعضنا بأسرارنا، أذكر أني اتصلتُ بك ودعوتك للعشاء مع صديق، قبلت للحال واستأذنتني أن يصحبك صديق لك.

صديق! كلمة مطاطة ضبابية تنفي الشبهات والتهم. ترى لم التحفظ؟ مم نخاف؟ لا أظنه خوفاً لكنه إحساس عميق بالإثم، كوننا نعيش علاقة غير شرعية، هذا الإثم اللعين الذي يظل ينخر في نفوسنا كما ينخر الدود في الخشب ويفسد علينا أية بهجة.

لماذا يتابني كل هذا الغثيان والقرف حين استعيد تلك الذكريات التي تخص علاقتي به؟ الرجل الذي كان اسمه الحبيب!! يحررني الزمن من الأوهام، فأستطيع أن أرى نفسي بوضوح كيف كنتُ، أجل يا منال، وأنتِ تعرفين، كنت في قمة إحباطي وقد ضاع حلمي بالسفر رغم مؤهلاتي العلمية وحصولي على شهادة الهندسة المعمارية بتقدير جيد جداً. فضلوا عليّ أخرى، مدعومة، ولديها واسطة لا يمكن ردّها، كم أصابتنى تلك الحادثة بالأذى والقهر، زاد من إحباطي المهني، إحباطي العاطفي أيضاً، كنتُ أجز ذبول فشل ثلاث خطبات متلاحقة، حتى آمنتُ أن كل عريس يتقدم لي سأفشل معه لأني منحوسة.

كنتُ وقتها بحالة مثالية لأرتمي بأي حضن، لأبكي على كتف أي رجل، كنتُ أحتاج للاستسلام لعناق غامض، وهو عرفني وأنا في أوج أزماقي وإحساسي باليأس والتخلي.

ما كان بإمكانني أبداً أن أفهم وقتها كم هو صياد. رجل بخبرته الواسعة في الحياة والنساء، قرأ بسهولة الحاجة والضياح في عينيّ، أتذكرين الطقوس المسرحية التي قام بها في السهرة: يقطف لي وردة، ويغرسها بعناية في شعري، متعمداً أن تلامس أصابعه رقبتني برقة، مكهرباً جلدي بالرجبة، ثم ارتجاله لشعر لطيف مستوحى من وجهي والقمر البدر، مقارناً بينهما، مُفضلاً قمري! وأخيراً كيف نزع قميصه متباهياً بجذعه المشقوق البرونزي، وكيف أخذ يرش رذاذ الموج على صدره وكتفيه.

لقد فتنني حقاً، لدرجة انتشيتُ بصوته النشاز وهو يغني لفيروز،
هذا العاشق بامتياز هو صيَّاد لا يخطئ هدفه، أكثر ما فتنني عفويته التي
أدرك الآن كم كانت مدروسة لدرجة تبدو طازجة وحقيقية، أكثر ما
تفتنني العفوية، لأنهم في هذا البلد يعتبرون قتل العفوية هو ذاته العملية
التربوية، العفوية بطانة الإبداع والخلق، لذلك اعتبرتُ هذا الرجل
مبدعاً، فنناً في العشق والحياة.

أتخيل نظرة الاحتجاج في عينيك الذكيتين، ستقولين لي: لكنه
أحبك كثيراً، وبأنك كنتِ شاهدة على حبه لي، قد يكون أحبي، لكنه
حب الصياد لفريسته، ربما الرجل العربي لا يستطيع أن يحب إلا
بعقلية الغازي، فما أن يميل إلى امرأة أو يبدأ بحبها، حتى يسيطر على
تفكيره هاجس وحيد: متى سأحصل عليها؟ متى سأضاجعها؟ كيف
سأسيطر عليها، وأضعها في قلبي مغلقاً عليها سجن أضلاعي، لأنه
يشعر في أعماقه - وربما عن غير وعي منه - أن كل ما يناله من هذه
المرأة مكسبٌ وامتياز، أما المرأة فتشعر حين تفشل علاقتها مع من
تُحب - مهما كانت الأسباب - أنها خسرت وأُهينت، وانخفضت
أسهمها في سوق الزواج! لماذا لا يحس الرجل والمرأة بالندية؟ ابحتي في
الأسباب الحقيقية والعميقة يا منال فهذا مجال عملك واختصاصك.

أعود لتلك السهرة يا صديقتي، تلك السهرة الساحرة التي
انتهت فجراً، كنا بحالة نصف صحو، نصف نوم، منتشين بالقمر
والنبيد والغزل، ورغم حالة النعاس والتعب الشديد اللذين كنتُ
بهما، فإنه أصرّ وهو يوصلني إلى البيت أن نتبادل قبلات حارة،
إصراره لم

يكن لرغبته الشديدة بي، بل لأنه وضع برنامجاً للعلاقة، وبأن
هذه السهرة يجب أن تتمخض عن إنجاز مهم: القبلات. وفي الأيام

التالية سيكون البرنامج مختلفاً، سيفوز بقوة أكبر وعزم لا يخطئ،
ويحصل علي تحت شعار براق ولا شيء يفوقه خداعاً: الحب.

هذا ما حصل تماماً يا منال، أفكر الآن وطعم المرارة طاع في فمي
وروحى لَمْ استسلمتُ له بسهولة؟ يا لإحساس المهانة ما أصعبه، بدوت
مسلوبة الإرادة تماماً، مشلولة، عقلي مسترخ كأنه تحت تأثير مخدر،
دعاني للغداء في الشاليه، رفضت، فأصر مؤكداً لي أنه لن يقوم بأي
تصرف إلا بموافقتي، تأكيد هذا أشعري أني متخلفة وامرأة غير عصرية
إذ تنظر للرجل كذئب يريد افتراسها، لبيت الدعوة وأنا أوهم نفسي أنه
يستحيل أن استسلم له وأنا لا أعرفه إلا منذ أيام. لكن ديكورات الغرام
كانت مثالية، الستائر الوردية المسدلة على النوافذ، الموسيقى الناعمة
الرومانسية، النبيذ الفاخر، واللوز المنقوع بالثلج والذي يعرف كم
أحبه، كان يقشر لي لوزة بعد لوزة ويضعها في فمي لتلامس أصابعه
شفتي، فبدأ بهما، إصراره أن يرشف النبيذ من شفتي المبللتين بسائل
الغواية... ما كنت متأكدة منه أني لست راغبة بممارسة الجنس معه،
لكني كنت في فخ الغواية القسرية، إن كان يمكنني ابتداء هذا التعبير.
كنا في غرفة وحيدة حيث سرير عريض أنيق ينتظرنا كوحش يفتر فاه
لابتلاعنا.

أحياناً أفكر لو أن الشاليه كانت مؤلفة من غرفتين أما كنتُ
نحوتُ من هذا الوصال؟ لكن السرير الفارغ كان كنداء وحشي
وعويل عميق لغرائزي التي طال قمعها حتى كادت تهترئ، ميزة هذا
السرير أنه يُتقن الصبر ويوحى لمن معه أنه غير مستعجل، وأنه لا
يبيت أية نية مسبقة، لكنه في الوقت ذاته يعطيني إحساساً مؤكداً، لا
أعرف من أين يغزوني أن وصالنا حاصل لا محالة. كيف يتقن تلك
المعادلة، لا أعرف؟ وهكذا وجدت نفسي من دون أية قناعة مني

ودون أن يطلب مباشرة عارية بين ذراعيه على السرير العريض، كنتُ أشعر كأنه نوّمني مغناطيسياً، وكان من الصعب عليّ الفرار من هذا الاحتمال.

بعد تلك الممارسة المُنهكة والتي حاول من خلالها استعراض كل فنون الجنس التي يعرفها، والتي يريد أن يزودني بها كما لو أنه يعطيني درساً خاصاً. بعد ذلك الوصال كان يمكن أن ابتعد لأرتب أفكاري المشوشة ومشاعري الأكثر تشوشاً، لأفهم أين أنا من هذه العلاقة؟ ومن هذا الرجل؟ وما الذي حدث بيننا؟ لأفهم كيف بقيت عارية ساعتين فوق سرير عريض دون قناعة فعلية مني!! كنت أحتاج أن أعرف كيف انوجد هذا الرجل فجأة في قلب حياتي؟ لا يترك لي مجالاً للتنفس، أحسه تحت جلدي مشوشاً أفكاري كما لو أن صوت مذياع رديء يستمر بالتشويش في أذني، كان عارفاً بخبرته كصيّاد أنه يجب أن يُحكم الخناق عليّ لأن قبضته لو ارتخت قليلاً حول عنقي فسأفر منه بكل طاقتي على الهروب. إذ أنه عكس مبادئني أن أقيم علاقة مع رجل متزوج.

المشكلة الجوهرية يا منال أن المجتمع، وكما يجبرك على طريقة في العيش والسلوك فإنه يجبرك على ما هو أخطر - الإحساس - إنه يلقننا أحاسيسنا ويعلمنا كيف يجب أن نشعر في كل موقف نتعرض له. لذا فقد أحسستُ بانكسار كبير حين استسلمتُ له، كأنه بعد ذلك الوصال قد كسرنِي واستولى على سوري المنيع، شعرتُ أنه اقتحم قلعة شرفي واحتلّها وصار سيّداً، عرف حميمية جسدي فامتلكني، بمعنى انتصر عليّ، إنه الآن رجلي وله الحق عليّ، فقد صرتُ خاصته وملكيته، ياه يا منال كم أحس بفضاعة هذه الأفكار، لماذا أحسستُ هكذا؟ كان بإمكانني الابتعاد، تجربة حدثت رغماً عني وكفى... من

جعلني أحسّ هكذا؟ كيف يتسللون إلى أعماق عصبونات إحساسنا فيجبروننا أن نحس كما يفترض بأنني أن تحس في هذا الشرق العربي التعيس.

المضحك أنه رغم شهادتي العلمية العالية وتفوقي فقد أقفلتُ محاكمتي العقلية واستسهلتُ الاستسلام لدوامة الحب المخادع، ربما استمررت بعلاقتي معه لخوفي من ألا يكون لدي علاقة، فقد كنا كذلك من جيل الثورة الجنسية الذي يعتبر أن الكبت وعدم عيش أية خبرة جنسية عقدة نفسية خطيرة! كنا مضللين بتلك الأفكار المخادعة التي تجبرنا على عيش علاقات جنسية وعاطفية مشوهة وبالسر تماماً كي نثبت لنفسنا أننا غير معقدين!! جعلني استسلامي لعيش علاقة معه أدرك الدور الرهيب الذي يلعبه الكبت الجنسي في حياتنا، وهو كان عارفاً تلك الناحية الحساسة، فكان الجنس تمثيلية متقنة يقوم بها ليهيمن عليّ، ويفتني معتمداً على قلة خبرتي إن لم أقل انعدامها، وعلى الكبت الطويل الطويل الذي أوهم أعصابي وجعلني أعيش حالة أقرب لما تكون تزاوجاً بين اللامبالاة واليأس.

"خيمة أطبقت عليّ" هذا شعوري دوماً يا منال وأنا معه، شيء انقض علي فجأة وما عاد بالإمكان الفكاك منه وكلما حاولت التملل والإفلات من أخطبوط تلك العلاقة أسرع يطبق علي مسخفاً أفكاري ومتهماً إياي بالرجعية.

تعاسته الزوجية هي الوتر الذي يعزف عليه، لكنه لن يطلق زوجته إكراماً لأولاده. اسطوانة ممجوجة يستعملها المتزوجون ليبرروا خياناتهم، لكنني تمكنتُ بعد أشهر من شحذ قواي والصراخ بكل طاقة كياني الذي يضجّ بالرفض له: لا أريد الاستمرار في هذه العلاقة، لا أريد أن أعيش علاقة مع متزوج.

هل تصدقيني يا منال لو قلتُ لك أنني أحسستُ بالانهيار وأنا أبعدُه عني، فقد صارت علاقتي معه أشبه بلعبة لي الذراع، من يلوي ذراع شريكه؟ ما كان يسمح لي بتركه، يقول أن هذا ليس من حقي؟! مضحماً لي روعة الحب العظيم بيننا وخسارتنا الفادحة لو خسرنَاه!! وفي كل مرة كنتُ أصرّ على قطع تلك العلاقة، كان يداهمني بأسلحته الهجومية، يحتضني بقوة كما لو أنه يريد تكسير أضلاعي - ورأسي أيضاً - يفترسني بقبلاته، ويحاول رغماً عني أن ينزع عني ثيابي، مفسراً ممانعتي بأنها دلال وخجل!! فأخرج من هذا العراك لا هشة، منفوشة الشعر، مبليلة الأحاسيس، كم كنتُ بلهاء ومضللة، كنتُ أحاول تفسير ما يحدث بأنه شدة حبه لي ورغبته لي، ولم يخطر لي أنه محاولة اغتصاب!.

أخيراً فررتُ، ابتسم لي الحظ وسافرت في بعثة إلى لندن لمدة عامين ورغم إصراري ألا يعرف عنواني، إلا أنه تمكن بالحيلة من الحصول عليه عن طريق صديقة لي. وبدأت رسائله تنهال علي عبر الانترنت. في البداية كنتُ أرد بدافع المجاملة وحاولت أن أجد فيها نوعاً من العزاء في غربتي القاسية، ثم كففتُ عن الرد لأنه بدأ يعزف على وتر الحب الضائع. هجوم رسائله لم يكن دليل حب، بل رغبة جامحة بامتلاكي، بإشعاري كل يوم أنه له حق علي لأنه ضاجعني ذات يوم!!..... يا للعقلية المتخلفة والمقرفة لمعظم رجالنا. المهم يا منال فوجئتُ أنني صرتُ أخافه أزعجني جداً هذا الإحساس، وكنتُ أحاول أن أفكر بهدوء ومنطق عقلائي لأعرف سبب خوفي منه لكنني لم أتوصل لأي تفسير... أظنه الخوف الخام والمبهم المتوارث عبر أجيال والذي تحسه المرأة تجاه الرجل، فالرجل سيد ومتسلط، غير مؤطر بثالث الرعب: السمعة، العفة، العذرية. والأنثى هي الأضعف، هي الأشبه

بالزجاج الرقيق والذي إذا كُسر لا يمكن إصلاحه ورُمي في القمامة، هكذا يقدموننا للحياة، يفصلون لنا الشخصيات التي سنلبسها كما نلبس ثيابنا.

حين عُدت إلى الوطن كان أول من هجم ليقول لي: الحمد لله على السلامة، وحين امتدت يده ليصافحني، ضغطت أصابعه بقوة هائلة على أصابعي كأنه يريد أن يذكرني أنه ضاجعني ذات يوم، عصف بي غضب هائل وغشيان فظيع، لكي تجاهلتُ مصافحته وسألته عن زوجته وأولاده، لا أعرف لماذا يحس بغيظ شديد كلما سألته عن زوجته، من حسن الحظ أنه انتقل ليعيش في مدينة أخرى، لكنه صار يباغتني باتصاله بي في أوقات متباعدة، ولم يعد يلمح لما كان بيننا، ولا يطلب لقائي، كل غايته أن يطمئن علي ويشم أخباري بفضول يعجز عن مداراته، وفي كل مرة يسألني: ألا يوجد رجل في حياتك؟! وكم كنتُ أود لو أصرخ به: لا يحق لك أن تسأل هذا السؤال. لكني كنتُ أكبح احتجاجي.

إلى أن صرخت به ذات يوم: لا يحق لك أن تسأل هذا السؤال. فقال بثقة المالك: كيف! أنا من يحق لي أن أسألك ما أشاء. كلامه يعني تحديداً: بما أنني ضاجعتك ذات يوم، فأنا لي الحق بك مدى الحياة!! وليس لك أية خصوصية تخفيها عني!!.

هل أضجرتك يا منال؟ لكن لدي إحساس عميق أنك تفهميني بمحبتك وذكائك حتى آخر كلمة سأقولها، المهم يا غاليتي، صار يزورني في أوقات متباعدة بحجة أنه في مدينتي لا نشغاله ببعض الأمور! وفي كل مرة كان يدخل مكتبي بالطريقة الغازية ذاتها وكنا نتبادل قبلات الأصدقاء كعادة المثقفين مدّعي التحرر، لكنه في كل مرة كان يتعمد بطريقة تبدو عفوية أن تلامس شفتاه طرف فمي، ثم كان يشحذ عينيه

بكل شهوته الزنخة متعمداً أن يذكرني بأكثر اللحظات حميمة في
وصالنا... كنتُ أبذل جهداً خرافياً كي أبدو لا أفهم شيئاً وأظل على
تعاملي البارد والمهذب معه، منتظرة رحيله.

لكن أي جرعة لطف زائدة مني كان يقتنها فيسألني: ألم
تشتاقي لي؟! فأردُ مُجاملة: أجل.

فيتشجع ويقول: والله أنت مجرمة، قضيت على أحلى قصة حب
بين أروع عاشقين. فأردُ باقتضاب متحاشية أن ألتقي بنظراته التي تنز
شهوة: الموضوع انتهى منذ سنوات، ولا داعي للتحديث به.

- لا، لم ينته، لماذا تقاومين رغباتك، لم يدخل رجل إلى حياتك،
ثم أنت لا تزالين مغرمة بي.

أبخلق به بذهول، وأعجز عن الرد أمام صلفه وغروره الغبي،
فيتشجع ويمد يده ليلا مس تهدي، فانتفض وأصرخ: ما هذا؟ كيف
تجرؤ؟!.

ينظر إلي مبتسماً كأنه يذكرني أنه طالما لمس جسدي.
هذا الرجل الذي أظنه نموذجاً لرجل شرقي، يعتقد أنه يملك الحق
علي لمجرد أنني عشتُ معه ذات يوم علاقة.

رجوته ألا يزورني في مكنتي، وأن يعفيني من اتصالاته
لللاطمثان علي لكنه فاجأني باتصاله ذات مساء، ومن صوته أحسستُ
أنه مشتعل بالرغبة، قال لي بلا مقدمات: اسمعي أنا لا أزال أشتهيك
كما لو أنك الأنثى الوحيدة على سطح الأرض، رغم أنك لا تستحقين
ذلك!!... تصوري يا منال كان اشتهاؤه لي امتيازاً لي!! تابع كلامه:
وبما أنك لا تزالين عازبة ولم ترتبطي بأحد، وأنا واثق أنك تحبينني،
فلماذا لا نستأنف علاقتنا أقصد، لماذا لا نمارس الحب كلما سمحت لنا
الظروف باللقاء.

احتميتُ بالسخرية كوسيلة سحرية لتلطيف الألم والغضب.

قلتُ له: لكن أنت تسكن في مدينة بعيدة، ولقا....

لم يسمح لي أن أكمل كلامي: أسرع يكشف عن خطته، اسمعي
سأستأجر بيتاً في مدينتك بمنطقة نائية، وسأزورك كلما سنحت لي
الفرصة.

- بمعدل كم مرة في الشهر؟

- لنقل مرتين.

- لكن هذا لا يكفي. فأنا دمي مشتعل بالرغبة لك.

لم يميز أبداً لهجة التهكم في كلامي، لأنه مؤمن أنه ملك
الجنس.

قال وهو يتنهد: كنتُ واثقاً أنك قمتين حباً بي.

لا أعرف لماذا انفجرت بضحك عاصف لدرجة انطويت على
نفسي من الضحك، أغاظه ضحكي الهستيري، فسألني: لماذا تضحكين
هكذا.

لم أستطع أن أرد لأني كنتُ مستسلمة لكريزة الضحك.

بعد شهر من هذا الاتصال انقضَّ علي يوم عيد ميلادي تسبقه
باقة ورد أحمر عملاقة، وهدية: العطر الذي أفضله، أطبق علي بهديته.
رفضت قبول العطر فأصر، فازددت رفضاً، اعتذرت له بلباقة عن
استقباله لأن لدي ارتباطات.

قال لي بثقة المالك: الغها كلها.

بحلفت به: بأي حق تطلب مني إلغاء ارتباطاتي.

ابتسم ابتسامة مُلغزة: ألا يحق لي هذا الطلب.

انفجرت بصراخ أحسسته يتفجر في شراييني وأعصابي وكل

خلية في جسدي.

- يلعن أبو الساعة التي عملت معك علاقة، يلعن أبو الزمان الذي عرفني بحيوان مثلك، يلعن أبو تلك الصدفة التي جمعتني برجل قحبة مثلك.... ألم تفهم بعد كم أقرفك وأحتقرك، أليس فيك ذرة إحساس يا حيوان... من أنتَ حتى تعتقد أنك ملكتني لمجرد أني عشتُ معك علاقة، طظ في هذه العلاقة....

يبدو أن انفعالي كان رهيباً لأنني لمحتُ الذعر في عينيه، كنتُ مستعدة أن أعمل فضيحة فقط ليخرج من مكتبي، خرج أخيراً، وما أن قدرت أنه صار في الشارع، حتى رميت باقة الورد العملاقة من النافذة وتبعتها بزجاجة العطر.

منال: آسفة على الإطالة، لكنني أظن هذه الرسالة ستهمك، وستدفعك لبحث الأسباب التي تجعل المرأة الشرقية نجني غالباً طعم الندم والمرارة بعد نهاية أية علاقة حب مع رجل شرقي اعتاد أن يشعر أنه مالك للمرأة لمجرد حصوله على جسدها.

اعذريني على تلك الرسالة الخاصة، يمكنك نشرها محرفة قليلاً في بريد القراء.

المحبة

أحلام على الريق

حين علمت غيداء أن وزير التعليم العالي سوف يكرم المتفوقين بنفسه، ويقدم لهم درع الثقافة جئت من الفرح، كانت ابنة الثلاثة عشر ربيعاً مفتونة بالوزير الأربعيني الوسيم تتابع مقالاته الصحفية والتلفزيونية وتعلن للجميع أنه الرجل الحلم بالنسبة لها. كانت تصرّحاًها تُقابل بالابتسام فما تقوله أحلام مراهقة. كانت غيداء واحدة من العشرة الأوائل المتخرجين من كلية التربية وعلم النفس، وحين تلقت الدعوة للتكريم وسط حفل سبته ثلاث قنوات تلفزيونية احتاجت من الفرح وأسرعت تتفرس في صور الطالبات المتفوقات لتؤكد لنفسها أنها الأجل. ثم شغلت أمها وصديقاتها ماذا ستلبس في حفل التكريم؟ المقرر في أفخم فندق في العاصمة، كان سفرها وإقامتها على حساب الوزارة وطوال ساعات السفر الطويلة بين مدينتها البسيطة والعاصمة كانت تحلم كيف سيكون لقاءها مع الوزير، كيف ستتصور معه، ماذا سيقول لها؟ وماذا ستقول له؟ حاكت مئات السيناريوهات عما يمكن أن تقوله لسعادة الوزير لكنها استسلمت للتعب ونامت وهي تحلم أحلاماً مشوشة بأنها ترقص رقصة حاملة مع الوزير بطريقة تنعدم المسافة بين جسديهما.

كانت الوزارة قد حجزت للمتفوقين من خارج العاصمة في فندق خمسة نجوم وحين دخلت غيداء غرفتها صدمتها الفخامة ورغم

إحساسها بالجوع فلم تستطع ابتلاع لقمة، أحست أنها متخمة بالشوق للوزير.

كان الحفل فخماً يضم أساتذة من كلية الآداب والفلسفة، ألقى عميد الكلية كلمة مؤثرة كذلك معاون الوزير ثم تقدم الوزير الأنيق إلى المنصة وارتجل كلمة سحرت الحضور مبيناً رعايته الخاصة للمتفوقين وتشجيعه للبحث العلمي الذي هو أساس تطور المجتمعات، لم ترمش غيداء نظرها عن سعادة الوزير طوال الوقت، تتأمله بافتتان شاعرة أن أنفاسها مخطوفة، ثم بدأ سكرتير الوزير يذيع أسماء المتفوقين واحداً واحداً، شعرت غيداء أنها تطير حين أذيع اسمها ولم تعرف إن لامست قدماها الأرض أم طارت إلى المنصة، كيف صافحها الوزير وقدم لها الدرع، ماذا قال لها؟ كيف كان شكل ابتسامتها، لا تتذكر شيئاً سوى أن لمعاناً غريباً أشبه ببرق اشتعل بين عينيها وعيني الوزير.

ثم خيل لها أن ضغط بقوة على يدها وهو يصافحها وطوال السهرة كانت محط نظراته المعجبة وبدورها كانت تتابعه بنظرات وكه كيفما تحرك.

أسهدها شوقها للوزير طوال الليل، شوق أشبه بالحمى جعلها تتذكر تلك المرات القليلة التي كانت تصاب فيها بالحمى وتهذي معترضة على كمادات الثلج والخل التي تلصقها أمها بجبهتها.

صباح اليوم التالي كان مقرراً أن يذهب المتفوقون إلى مكتب الوزير ليشكرونه، انتظر الطلاب ساعة ونصف لأن سعادته مشغول باجتماع هام، ثم طلبت السكرتيرة من كل طالب أن يدخل بدوره لي شكر الوزير، وحين حان دور غيداء ودخلت مكتب الوزير مصعوقة من اتساعه وفخامته والذوق الرفيع لأنثائه والنباتات النادرة في زواياه

وجدت نفسها واقفة في منتصف الغرفة مذهولة مبهورة الأنفاس، تقدم منها الوزير فمدت له راحة ببرودة الثلج، أحاط خصرها بذراعيه وطبع قبلة ملتهبة طويلة على فمها قبلة أشعرتها أنها استنزفت كل قواها أحسست أنه انتزعها من مجال جاذبيتها وألقاها في جاذبية أخرى، تحسست يداها جسدها الرشيق قبلها مجدداً في عنقها ووجهها وفمها قبلات أكثر جرأة واقتحاماً. لم تكن تعرف أن افتتاناً مجنوناً يسطع من نظرتها إلا حين لمحت صورتها عَرَضاً في مرآة الحائط، قُرِع الباب، فانتفضت غيداء مذعورة، أما الوزير فلم يكثرث. دخلت السكرتيرة تستأذنه بدخول الطالب التالي، لم يطلب الوزير من السكرتيرة التريث أومئ برأسه موافقاً، غادرت غيداء مكتبه مسحورة وهي تنظر إلى الوزير نظرات متعبدة وطوال رحلة العودة إلى مدينتها التي أحسستها - مسكينة مثلها - كانت حاملة الحياة، ذاهلة ولم تستطع الرد على أسئلة أهلها الفضولية عن حفل التكريم بل تعللت بالتعب.

لم تتخيل أن قبلة الوزير ستسحرها فكلما استعادتها تدخل في حالة تأملية أقرب للانخطاف تحاول التعبير عما تحسه بالكلمات لكن عبثاً، ثمة استحالة في ترجمة مشاعرها لكلمات فتلك القبلة لانهائية، لها صدى أبدي وعبق يزداد كثافة كل صباح إنها كل صباح تستعيد نشوة تلك القبلة على الريق وقبل أن تشرب الماء وصارت كلما رآته على شاشة التلفاز تغدو عيناها شهوانيتان ويلتمع في سوادهما حريق عاطفة مكبوتة ومتأججة دوماً. ثم صار يضيئها إحساسها الدائم بتأثير تلك القبلة لدرجة تشعر أحياناً أنها شبه منهارة.

تعلقت بالوزير بجنون، فكان يُلهبها عن بعد كأنه يملك جهاز تحكم بعواطفها أحبته بجنون بعد تلك القبلة، شعرت كأن روحه نفذت إلى روحها من خلال تلك القبلة ووشمت خلاياها.

وفي كل مرة تستعيد سحر القبلية اليتيمة تشعر بهزة عميقة في
كياها، لأيام عاشت مذهولة لا تعرف تفسير ما حدث، لماذا قبلها
الوزير؟ لماذا تحسست يدها جسدها؟! هل هذا طبيعي؟ هل يحق للوزير
دون استئذان أن يقبل زائراته! لكن ألم تكن سعيدة؟! بل كانت أكثر
من سعيدة مبهورة ومنخطفة لعالم يضج بالإنارة والنشوة، إنها لم تعرف
مشاعر بتلك الحدة طوال حياتها هذا القبلية وسام امتياز عظيم لها
اعتراف بأنوثتها وجمالها من قبل رجل عظيم، نغصتها فكرة أن يكون
قد قبل غيرها من المتفوقات لكنها طردت ذلك الاحتمال البشع من
ذهنها مؤكدة لنفسها أنها الوحيدة التي أثارت إعجابه.

بعد أسابيع من تلك القبلية السحرية صار هاجس غيداء لقاء
الوزير ثانية، لم تفكر أبداً أنه متزوج ومرتب بأسرتة، لم تفكر أن فتاة
بعمرها يفترض أن ترتبط بشاب تحبه يقارها في السن، تلك القبلية بلبت
كياها تركت في روحها حريقاً لا تعرف كيف تخمده.

وبدأت تساؤلات كثيرة تعذها، ألا يشاقها الوزير؟ لم لا يحاول
الاتصال بها؟ هل يفكر بها؟! ألا يشتهي قبله أخرى؟ صارت تشعر
بالمهانة لأن الحبيب يهملها وعانت آلام الحرمان والنبد بأقصى أشكالها،
مرّ شهر لم يحاول الوزير الاتصال بها، كان قد أعطاه بطاقة الخاصة
فأمكنها الاتصال بمكتبه مباشرة، ردت السكرتيرة بصوت آلي تعلمها
أنه خارج القطر وقد يرجع بعد أسبوع.

مرّت ثلاثة أسابيع على عودة الوزير ولم يتصل بها أدهشها أن
لا مبالاة تزيد تأجج مشاعرهما وتزيد إحساسها بجرح كرامتها،
تساءل متألّة: من أنا بالنسبة له، ألا يحبني؟ لماذا قبلني إذاً؟ أنا رهن
إشارته ليرفع السماعه ويقول كلمة واحدة فقط، تعالي، وسأكون
بين يديه.

أحسّت بالانكسار فالأيام تتالى والوزير لا يتصل، اتصلت به وفي نفسها صراع وإحساس بالمهانة تشعر أنها أسيرة قوة أقوى منها، قوة تجبرها على الانصياع لذلك الهوى الجارف أتاها صوت السكرتيرة تخبرها أن سعادته في اجتماع ونصحتها أن تتصل به بعد ساعتين ذرفت دموعاً سخية طوال الساعتين وهي تشعر كم أوهنتها عاطفتها، عاودت الاتصال منتبهة كيف غدا صوتها كالأنين، طلبت إليها السكرتيرة أن تنتظر قليلاً، كادت تيأس أنها ستسمع صوته إلى أن باغتها يقول بعفوية: آسف حبيبي، كيف حالك.

هل حقاً قال لها حبيبي، لو يعرف أنه قذف بها من قاع وادي اليأس إلى قمة جبل الأمل، دبت الحيوية في روحها الذابلة، امتلأت بالفرح والنور كمن فتح ثقباً في روحها المحتقنة، انفجرت بكلام سريع كأنها تخشى ألا تتمكن من قوله، تتكلم كمن تسقط في هوة ولا تبالي بالعواقب، أخبرته أنها مشتاقة إليه كثيراً وأن تلك القبله لا تفارق خيالها وبأنها تعبده وتتمنى لقاءه ثم صار صوتها أشبه بالصراخ وهي تعاتبه أنه لم يحاول مرة واحدة الاتصال بها، اختنقت روحها بالدموع - هكذا شعرت - وهي تسأله وقد ترقق صوتها ترققاً غريباً: ألا تحبني؟ أتاها ضحكه الذي ألمها وأثارها في الوقت نفسه: أنت هائلة، لكن ينقصك شيء واحد، صرخت نافذة الصبر: ما هو؟، أن تعرفي ماذا يعني وزير، أن تقسدي أشغالي، سألته شاردة: هل أنا حبيبتك حقاً، أم تقول تلك الكلمة هكذا.

قاطعها: اعذريني، مضطر أن أنهي المكالمه، ستتحدث فيما بعد. أغلق السماعه قبل أن يسمع ردها، تاركاً إياها في حالة اختناق من ذلك الزحام الرهيب من الخواطر المشوشة والإحساسات المضطربة، حاولت التمسك بكلمه "حبيبي" كغريق يتمسك بقشه لكنها عجزت

تماماً عن إدخال أي قدر من السلام إلى روحها، لا تعرف مسك طرف
خيط أفكارها.

صارت عصبية تتشاجر مع كل من حولها وتستثار من كل كلمة،
رفضت بشراسة التعرف بالطبيب الشاب الذي تقدم لخطبتها والذي
يؤكد كل من يعرفه أنه شاب ممتاز، أحست أنها تصده كما يصدها
الوزير، فهي تنتقم من هجران الحبيب بتعذيب شاب يحبها، تملكها
هاجس طاغ أنها مصرة على رؤية الوزير ثانية لتنتزع منه اعترافاً
بقيمتها، تعلقت به كرمز للرجولة والإثارة ولم يزد لها الوقت سوى
التهاباً وعناداً.

مرت أسابيع ولم يتصل بها الوزير كما وعدها، عاودت الاتصال
بعناد الحب اليائس بمعاناة وآلام الحبيب المرفوض، وبعد محاولات عديدة
سمعت صوته، لم تعاتبه بل حددت هدفها: متى سأراك؟
- في أي وقت، قالها بلا مبالاة.
- أصرت: حدد وقتاً.

راوغ مستعللاً بأشغاله وعدها أنه سيتصل بها خلال أيام ليخبرها
عن اليوم والساعة، عاشت الأيام التالية بحالة هياج واستعانت بالحبوب
المهدئة التي تستعملها أمها، لم تنتظر أن يتصل بل كلمته فاقدة الصبر
فقال لها تعالي غداً. حاكت كذبتها ينسر وسافرت إليه، وصلت مكتبه
منهكة من الانفعالات تحس بعطش شديد، كانت تتخيل أنها ستسعد
سعادة جنونية حين تراه، لكن ما أن واجهته حتى أحست أنها تموي في
قاع بئر لا قرار له، في عينيه جمود غريب لم تجد له تفسيراً، عيناه بلا
تعبير بلا شوق، خنق في نفسها للحال الرغبة بالبوح تشوشت نظرها
المتعبدة له، ولم تستطع أن تتكلم إلا بكثير من العناء، سألتها ببرود
مهذب ماذا تشرين؟ قالت بصوت واهن: ماء. استمرت تحدق به لم

لا يقبلها، ما به جالساً وراء مكتبه متعالٍ وضجرٍ، فجأة قرأت في عينيه الحقيقة: إنها لا شيء.

انفجرت شفتاها قليلاً من ذهول ما تعانیه وبعد جهد قالت: كنت أعتقد أنك تحبني كما أحبك.

امتعض وهو يرد: لا أفهم حباً يقوم على اللاشيء.

غامت الدنيا أمام عينيها ودت لو تصرخ به: لماذا قبلتني إذا؟ لماذا

داعبتني؟

قرأ أُلها في عينيها، قال مؤاسياً: لا تزالين صغيرة، وتُحاربك في

الحياة قليلة، خذي الأمور ببساطة، ولا ترهني نفسك لموقف عابر.

انفجرت بالبكاء فلم يتأثر كان ينظر معظم الوقت إلى خاتمه

الضخم ذو الحجرة الخضراء العملاقة أحست في داخلها سُمًا، لم يكلف

نفسه بمسح دموعها ولم يمد لها منديلاً، أكثر ما يؤلمها إحساسها أنه لا

يحترمها، أي جنون دفعها إليه، ولماذا طبع تلك القبلية الملتهبة على فمها؟

أكان يلهو؟ أم أحب أن يتذوقها؟

أمامها أيام طويلة لفك ألغاز تساؤلاتها، استأنفت حياتها مكسورة

الخاطر، مُهانة، وقبلت الخطبة للطبيب الشاب لكن قبيلات الخطيب لم

تسحرها كقبلية الوزير، إنها لا تزال أسيرة تلك النشوة الهائلة التي

تذوقها كل صباح، بل مرات عديدة في اليوم.

ذات صباح وفيما ترشف قهوتها مستعيدة كالعادة نشوة القبلية

السحرية، سمعت المذيع يعلن أن حدثت تغيرات في الوزارة وأن وزير

التعليم العالي نُحي من منصبه، واستبدل بآخر، ارتجف فنجان القهوة

بقوة في يديها، فجأة أحست بالشفاء وتحررت من تأثير تلك القبلية بل

أحست أن في تلك القبلية وقاحة وانتهاك لكيانها وأن شفتا الوزير

ذابلتان وطعم شفتاه منفّر.

تمطت بسعادة ونشوة، سعادة من يشفى من مرض مستعص، ياه
لقد شفيت من سحر قبلة الوزير الذي ما عاد وزيراً.

امراة من غير

الثالثة بعد الظهر، إنه وقت التأمل المثالي للنساء الوحيدات، هذا ما فكرت به وهي تنتحي زاوية في حديقة عامة تناثرت فيها طاوولات وكراسي بلاستيكية، وغير بعيد كشك صغير يديره شاب يقدم الأركيلة والشاي والقهوة للزبائن.

رائحة الخريف وألوانه تحرضان في نفسها الشجن رغماً عنها، ستبلغ الثانية والخمسين بعد أسبوع، وسيلعب زوجها العمر ذاته بعد ستة أسابيع. تحس أن الخريف عصب حياتها، فقد تزوجت الرجل الذي أحبته في الخريف، فمأ قبل أن يكمل العشرين من عمرهما رغم معارضة الأهل، سرح نظرها في الأعشاب التي بدأ يطغى عليها اللون الأصفر، تذكرت السنوات الأولى من زواجها، كيف عاشت في غرفة حقيرة في قبو لا يدخله شعاع الشمس.

كانا ينامان على فرشة على الأرض ويعلقان ثيابهما القليلة على تعليقة خشبية مخلعة، ومع ذلك فالسعادة التي عرفتها في تلك السنوات كانت كثيفة وسخية، ولم تعرف ما يشبهها طوال حياتها حتى عندما رزقت بولديها. تأملها النادل بنظرة متفتحة، أحست أنه يحرز أن كرامتها جريحة، ففي نظره رقة وتعاطف. ابتسمت له، قدرت أنه في عمر ابنها، طلبت معسل الورد وفنجان قهوة.

الطاوولات حولها فارغة، امتدت يدها بحذر إلى ظهرها متظاهرة

أفها تحكه لكنها تمكنت من فك حمالة نهديةها، ياه كم تزعجها البدانة، لكن ما باليد حيلة، ما من تعزية سوى الطعام خاصة الحلويات. وضع النادل الأركيلة بجوارها، وانتظرها حتى سحبت نفساً وأطلقت الدخان من فمها، شكرته، فرد عليها بابتسامة حقيقية.

كان للقهوة مذاق رديء لكنها لم تمتنع عن رشفها ببطء، أحست أنها تذوق طعم أيامها. توقفت ذبابة هرمة على الطاولة همت أن تطردها، لكنها وجدت نفسها تحديق بها متفرسة كأنها تبين فيها ذاتها، استمر تحديقها في الذبابة بعناد وإصرار كأنها بحثت عن حل لغز، ثم طفحت عينها بالدمع الحار، فيما وجهها ظل هادئاً هدوء الاحتقار والازدراء لزوجها الذي لا يفارق ذهنها؟!!

مرت بجانبها امرأة شابة تحمل طفلاً صغيراً، تابعتها بنظرة أسيانة حتى اختفت تفتق بذهنها الذي تحسه متبلداً منذ سنوات سؤال: ما الذي يبقى للنساء بعد الخمسين من عمرهن؟!!

ورغم بساطة السؤال فإنه أدهشها لأنها لم تطرحه بتلك الصيغة العارضة البسيطة من قبل ولم تستطع أن تجيب على الفور - كما توقعت - كان عليها استعراض حياتها عسى منطق تسلسل الأمور يقودها إلى نتيجة.

بنظرة مهمومة تابعت الحركة البطيئة للغيوم، ابتسمت بسخرية، فهذه هي الصفة الوحيدة التي لم تتغير فيها منذ طفولتها، كانت مولعة بمراقبة الغيوم وبتشبيه أشكالها. إنها تحسها الآن موكب من النساء الكئيبات الخمسينيات.

فكرت وهي تسحب نفساً عميقاً من الأركيلة أنها منذ زمن طويل تشتتني الخروج من عزلة روحها، لكن كل المحاولات فشلت، فابنتها منشغلة بأطفالها، وابنها سافر إلى دول الخليج ليعمل، وصديقاتها

تقمصن بسهولة شخصية الجذات، قانعات بالقالب الذي يتوجب عليهن العيش ضمنه، ولم يبق لديهن أية رغبة في طرح سؤال احتجاج، إنها الوحيدة التي لم تكف عن طرح الأسئلة!

مر شريط ذكرياتها بالياً باهتاً أمام ناظريها، لقد برعت في عملها الوظيفي، وكانت زوجة مثالية وأماً ممتازة، كانت مثل النحلة في نشاطها وكالنملة في دأبها، ولم تكن تشكو أو تتذمر من أعبائها، ففي داخلها طاقة مذهلة للعطاء، ولم تعرف الأرق أبداً، إذ كانت تغفو ما أن يلامس خدها المخدة.

وحين بلغت مرحلة الراحة وتقلصت مسؤولياتها، وحقت مع زوجها مستوى معيشة مرفهاً أحست أنها تنتظر مكافأة عظيمة من الحياة. لكن الحياة طعنتها في صميم كرامتها جرحاً بليغاً ستظل شفتاه نازفتان مدى الحياة.

فرفيق عمرها تنكر لها وصار يتنقل من عشيقة إلى عشيقة في البداية كان يحرص على شعورها فينكر علاقاته، لكنه مع الوقت صار يحدق بها بنظرات لا تتصارع ولا تتكسر ويصرخ في وجه الحقائق التي تواجهها بما أنه حر بحياته، وإن لم تقبله كما هو فهي حرة باختيار حياتها.

فجأة سقطت الجمرة عن سطح القرص، منبهة إياها لحقيقة ظلت غامضة عنها طول حياتها، إذ إن أهم قيمة في حياتها هي الخوف من الناس ومهابة العادات والتقاليد، فكرامتها الجريحة بعد خيانات زوجها تدفعها لطلب الطلاق، لكن المنطق النفعي لعقل ونصائح المقربين يمنعاها من طلب الطلاق، فمعظم الإمبراطورية المالية التي حققها مسجلة باسمه فلم يخطر لها يوماً أن تحذر من الرجل الذي أهدته روحها زوجها الذي اعتقدت أنها تعرفه وتقرأ أفكاره حتى لو كان كل منهما في غرفة، صار

إنساناً غريباً حين بلغ منتصف العمر، تساءلت: ترى لو ظل فقيراً، هل تجرأ وعشق شابات في عمر ابنته. تذكرت باشمزاز أنه أجرى عملية لتجميل أنفه وهو في الثامنة والأربعين. وأنه صار مهووساً بالتمارين الرياضية وبربطات العنق والأحذية الفخمة والعطور.

في بداية اكتشافها لخياناته لم تعرف كيف تكبح انفعالاتها وكيف تستوقف عند حد كانت تتكلم مع الجميع عن خياناته، تعيد التفاصيل ذاتها، تتكلم لساعات طويلة كلاماً أشبه بالصراخ لكنها تشعر أنها رغم كثرة الكلام لا تتوصل للتعبير عما تريده. ترى ماذا تبغي من وراء تلك الزوابع الكلامية؟! صحيح أنها تشعر بالظلم والقهر، فمشوار كفاحها مع رجل حياتها تمخض عن خيانة. فعند أول علامات ذبول شبابها هجرها دون أن يشعر بذرة تأنيب ضمير. لكن بطانة صراخها فيه احتجاج عميق للفكر السائد وللتصنيفات الجاهزة والمسلمات التي لا يجروء أحد على الاعتراض عليها، إنها تصرخ في وجه الناس لماذا العمر في مصلحة الرجل دوماً؟! ما الفرق بين امرأة في الخمسين ورجل في الخمسين؟ كلاهما يهرم، كلاهما يذبل؟

ثمة هوة كبيرة في تفكيرها تعجز عن ردمها، مجرد تساؤلات تهيم حولها، لماذا لا يستهجن سلوك رجل في الخمسين يرفع شعار المتعة واستعادة الشباب الزائل بإقامة علاقات مع شابات صغيرات؟! بل إنه يكشف عن رغباته بنوع من الوقاحة كأنه يصرخ في وجه الناس بأن كل شيء مباح له.

تململت في مقعدها الذي يضغط بمسنديه على وركيها المكتنزين، وتساءلت كيف سارت حياتها بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، تذكرت بألم السنوات الأولى من خياناته كيف أحست أنها تشارف على الجنون، كانت ترفض التصديق أنه يخونها، وتطيش حواسها من

الأم وهي تتخيله عارياً مع عشيقته الشابة، فتبكي كالطوفان وتطلب العون من الأصدقاء حتى صاروا يتضجرون منها، وتلتهم كميات هائلة من الحلوى، وأحياناً تجر نفسها على تقيئها. تابعت دخان الأركيلة الذي يتبدد كأحاسيسها، فكرت أن كل تعاطف الأصدقاء معها كان سطحياً، في جوهر كلماتهم المغرية لها تراخ ومسامحة لسلوك الزوج الذي استيقظت حيويته الجنسية والعاطفية مجدداً في الخمسين، تظاهري أنك لا تعرفين شيئاً، ودعي أيامك تمر بسلام.

الكل كان يجمع أن أهم شيء في حياتها أولادها، وأن، عليها أن تعطي ذاتها لهم وهي في الخمسين، فهم مستقبلها. كم تشعر بالغبن والظلم من تلك الأفكار تذكرت نصيحة إحدى صديقاتها: اسمعي، عليك أن تخفضي وزنك وتعودي رشيقة وإن لم يعد لك زوجك، فاتخذي عشيقاً، وأنا أفضل لك العشيق، لم لا تجرب المرأة رجلاً آخر غير زوجها، هذا حقها.

استعادت الحوار بينها وبين صديقاتها وابتسمت. ترى ما هو الصواب في كل تلك الآراء المتناقضة التي سمعتها. ترى هل من الصواب في وضعها الحالي أن تقاوم صوت العقل أم صوت العاطفة؟ لكن لماذا كل شيء يختلط بذهنها؟! أكثر ما يؤلمها إحساسها بالهانة، ليس لأنه خافها، بل لأنه نسيها حقاً. إنه يعود للبيت مساءً يتعشيان معاً، ويتابعان البرامج التلفزيونية، لكنها تشعر تماماً أنها غير موجودة في حياته، يمكنها وهي جالسة في قوقعة وحدتها أن تحس بنشوته مع عشيقته الشابة.

تذكرت ذلك الزمن البعيد حين كان يحتاجها كحاجته للهواء، كم تخيلت وانتظرت أنهما في منتصف العمر سيتأبطان ذراع بعضيهما ويسيران كتفاً إلى كتف مستعرضين مشوار كفاحهما وسيكون

أمامهما سنوات طويلة للرفاهية والدفء الوقور لزوجين في منتصف العمر.

نظرت في ساعتها لم تستطع منع نفسها عن تخيله كيف يتأنق ويتعطر ليلتقي عشيقته التي يغدق عليها المال والهدايا. رفعت نظرها إلى السماء، الغيوم ساكنة كثيفة تميل للرمادي، حدقت فيها بشغف، لم تستطع منع نفسها عن الابتسام، لا كتشافها أن ثمة غيمة تشبهها تماماً، أجل هناك في قبة السماء وجهها، امرأة من غيم تبسم ابتسامة متعالية.

العقاب

لم يشجعه على المضي في قراره سوى عنف يأسه، جمع بعض أغراضه كيفما اتفق دسّها على عجل في حقييته، شعر أن هذه اللقطة غير غريبة عنه فهي تمثل حلمه الوحيد على مدى عشرين عاماً من الجحيم الزوجي، تردد هل يكتب لها ورقة أم يغادر دون أن يُعلمها، لم يكن بحالة تسمح بالتفكير فهو مختلف بانفعالاته المكبوتة في صدره، كان يكرّز على أسنانه وهو يقول: لن أعود أبداً. ورغم أن خوفاً أصم كان يكمّشه في كتفيه ويخنقه قلقاً على أولاده، إلا أنه مضى في قراره الذي لن يتراجع عنه ولو قامت الدنيا.

ابتلع حبتين مهدئتين وهو يستحضر صورة الطبيب الواصل من نفسه يحذره: عليك أن تنتبه جيداً لصحتك، رجل مثلك على أعتاب الخمسين عمله مرهق وطويل يجب أن يحذر الانفعالات القوية، وليس ضغطك المرتفع إلا بسبب الانفعال.

انطلق بسيارته غير عارف وجهة محددة، باغته دموعه كان بكاءؤه مؤلماً، بكاء رجل لم يعتد على ذرف الدموع، حاول أن يهدئ نفسه وأن يحثّ ذاكرته لاستعادة صور سعيدة قبل زواجه، إلا أنه لا يعرف من أيام عزوبيته سوى صور ضبابية وطعم عذب تتركه الحرية في حلقة، المدينة متألّسة بأنوارها رغم الظلام، أين عساه يذهب؟ هل يقصد الفندق الذي اعتاد أن يلتقي فيه بعض عشيقاته اللاتي يلجأ إليهن هروباً

من جحيم زوجته عساه يجد لديهن العون في شفائه من إحساسه المستمر بوطأتها.

لا يتمنى سوى أن يتوصل لشعوره بالفراغ منها، فهي تحل حواسه وتسممها، يشعر دوماً أنها تملؤه بالفوضى والتوتر وتشتت ذهنه جاعلة إياه في حالة لهاث من التوتر الغامض...

قرر الذهاب إلى فندق لم يقصده من قبل، يريد أن يضع بين غرباء، أن ينسى نفسه، يتمنى أن يسترخي ويللم بقايا روحه الممزقة، أعطاه عامل الاستقبال مفتاح غرفته وهو يتمنى له ليلة سعيدة، تمدد على السرير وهو يشعر أن جسده كوتر مشدود، فتح النوافذ ليستقبل هواء الليل الرطب، خبط على صدره مغتاضاً لأنه شعر أن الهواء ملئ بأنفاس زوجته، بل أحس أنه لو ذهب إلى آخر الدنيا فستظل تسكنه كجلده، كيف ربط حياته بتلك المرأة الهستيرية، التي يحسها كعقاب على ذنوب لم يرتكبها.

وتحت ستار حبها العنيف له، كانت تمتص حياته وحيويته وشخصيته وتحيله ليهكل رجل فارغ إلا من اليأس والألم، منذ الأيام الأولى لزوجهما أرادته أن يحل عذريتها وأن يكون ممتناً لها كونها حافظت على شرفها في زمن صار كل شيء مغشوشاً خاصة العذرية. ادعت أنها عانت آلاماً رهيبية ونزفت نصف دمها وهي تقدم له عذريتها كهدية لا تقدر بثمن! لدرجة تمنى في سره لو لم تكن عذراء، واستمرت آلامها بعد كل وصال لمدة شهرين، حتى أنه اتخذ قراراً ألا يقربها لأسابيع، حاول أن يعتبر تصرفاتها الغريبة ضمن الطبيعي، لكن ردود فعلها تجاه ابتعاده عنها كانت كارثية، فذات يوم عاد من عمله مرهقاً ليجدها بحالة هستيرية تضرب وجهها بقسوة وتمزق صور زفافهما وترمي الوسائد أرضاً وهي تعوي من الانفعال: أنت لا تحبني.

جمدته المفاجأة ولم تكن لديه أية خبرة عملية أو حتى نظرية في التعامل مع هذه الانفعالات المجنونة، أول شيء قام به إغلاق النوافذ ثم اقترب منها بحذر كما لو أنه يقترب من أفعى يخشى أن تباغته وتلدغه محاولاً فهم سبب جنونها، صرخت، أنت لا تحبني وإلا كيف تتحاشاني لأيام ونحن لا نزال عروسين.

لم تترك له المجال ليفهمها أنه يفعل ذلك لأجلها لأن آلام الجماع التي تحس بها تجعله وحشاً في نظر نفسه إن لم يعطها فرصة للراحة، زاد كلامه من هياجها وأهمته بالكذب والنفاق ثم عمت كلامها على الرجال كافة.

لم يكن يعرف كيف تنتهي نوب انفعالاتها، لكنها قدأ هدوء عاصفة تعبت من زخمها، تنطفئ حين لا يعود بمقدورها الصراخ والضرب والبكاء، تحوّل حياتها معه لرعب وترقب وفي نهاية كل نوبة هستيرية كان يتوجب عليه التمثيل أنه اقتنع بحججها وأنها خرجت من الشجار منتصرة، وأخيراً عليه أن يضاجعها كتتويج لعذابه وتمزقات روحه، يقترب من جسدها العقوبة - كما يسميه - ولم يكن قادراً على القيام بذلك الفعل الفظيع إلا بدعم قوي من خياله يصوره مع نساء فانات وهادئات وبمساعدة عدة كؤوس من الكحول.

في حملها الأول زوجته رغماً عنه في آلام وحامها، فكانت توقظه من نومه ليشهد اقياءاتها الصباحية الصفراء والتي تفوح منها رائحة كريهة.

و حين كان ينفجر غضباً صارخاً بها: لماذا توقطيني، هل لأتفرج عليك كيف تتقيئين؟! فتصرخ بجنون أنت لا تحبني ولا تحس بأية عاطفة وتعاطف معي، لا تريد من جسدي سوى اللذة، أما آلامي وأوجاعي فلا تشاركني بها.

صار يشعر برعب يتكشمش في داخله مذعور دوماً مما يمكن أن تقوم به، يشعر أن من واجبه حمايتها من جنونها كي يحمي نفسه وأولاده، كانت تشعر أنها عظيمة لأنها أنجبت له ثلاثة صبيان، ولم تكن تجيد العناية بهم فألقت عبء تربيتهم على الخادمة السيرلنكية، كم تأمل أن تغيرها الأمومة لكنها استغلت أولادها لتضيق الخناق عليه أكثر فأكثر، حتى استحالت الحياة بنظره إلى مشقة وألم، لم يعد يعرف الابتسام وحين تضطره الظروف للابتسام يشعر أنه كل مرة يرسم ابتسامة مزيفة على وجهه يعرف تماماً أنها لا تحبه بل تريد سحقه، ثم بدأت غيرها المجنونة كلما امتدح امرأة أو تحدث إلى سيدة برقة، تبدأ شكوكها التي تتحول بقوة خيالها إلى يقين بأنه يخونها، وأكبر دليل أنها تتصل به مراراً في مكان عمله ولا تجده في أحيان كثيرة كان يفقد قدرته على الاحتمال فينفجر بغضب رهيب ويصفها بأبشع الصفات ويُعلمها كم يكرهها وكم أنها جحيمه ويتمنى موتها، كان يتفرج عليها متلذذاً كيف تصغي إليه مصعوقة مبهورة الأنفاس، ثم تبدأ نوب جنونها التي تمثلها بإتقان فتتظاهر بضيق التنفس وتقوم من مكانها مترنخة ثم تسقط أرضاً مغشياً عليها، في بدء تلك النوب يكاد يصدق أنها تفقد الوعي حقيقة، لكنه مع تكرار تلك النوب لاحظ أنها تختار المكان الذي ستقع فيه كي لا تصاب بأذى، لكن مهما كانت الأسباب فهو مضطر للخضوع لمشيئة امرأة هستيرية خاصة حين يلمح الدموع والفزع في عيون أولاده وحين تبدأ بمناجاتهم بصوت كالأنين والدموع تنسكب من عينيها: آه يا أحبائي، أترون والدكم يريد موتي لتصيروا يتامى، اليتيم يا أحبائي هو يتيم الأم.

يبكي الأطفال بالتأثر والعدوى من أم لا تعرف سوى تسميم حياتهم، فيضطر الأب إلى المللة الموضوع شفقة على أولاده غير

الواعين أن الماما ممثلة وضحية مرض نفسي لا يعرفونه، لكنهم يعيشون آثاره.

كم من المرات وضع رأسه تحت الماء البارد كأنه يتمنى إطفاء لهيب عواطفه، كم من المرات هجّ من المنزل بعد منتصف الليل ليتوه في شوارع معتمة صارخاً بكل طاقته على الصراخ حتى ييح صوته، ويعود منكسراً إلى البيت ليربت على كتف زوجته معذراً لها وواعداً إياها أن يتعلم كيف يحبها.

صار يشعر كل صباح أنه معرض لكل الاحتمالات، كل صباح يسائل نفسه: هل سيمر هذا اليوم بسلام؟ إنه لا يريد سوى العيش بسلام، وكى لا يختنق صار يلجأ بين وقت وآخر للعلاقات العابرة... لكنه كفّ عن هذا الهروب لأنه لم يجد ما تتوق إليه روحه: الدفء.

بدأ يفاجئ نفسه بنوب ضحك هستيرية تتابيه من دون سبب، أو لأنفه سبب، ينفجر ضاحكاً حتى ينطوي على نفسه وتسيل دموعه، لم يكن ضحكه سوى تعبير عن عمق يأسه.

انتفض من السرير مكتشفاً حقيقة غابت عن ذهنه سنوات، الجريمة الحقيقية هي عدم عيش الحياة بكرامتنا وكما نريد، أجل لقد ارتكب جريمة بحق نفسه بإذعانه لامرأة تسعى لتدميره عشرين عاماً سممت حياته، دمرته معنوياً ونفسياً وأحالته إلى رجل مبلبل الخواس يعيش حالة فزع وترقب مستمرة، يخاف من أية لحظة أن تنفجر نوب عصبيتها المخبونة.

فتح البراد تناول زجاجة بيرة مثلجة، شربها، شاعراً أن البرودة تطفئ نار أحشائه، ياه ما ألد خدر الكحول، شرب زجاجة ثانية، شاعراً باسترخاء ونعاس، غفا شاعراً لأول مرة أنه يحتضن نفسه، ياه

كم اشتاق أن يعانق روحه، أحس أنه منذ زمن بعيد لم يختل بنفسه دون خوف، فزوجته تدس نفسها بينه وبين روحه.

هل أغفى حقاً وبدأت أحلامه تنساب بسلاسة، أم أن ما يراه أحلام يقظة؟! حاصرته الصور التي أراد الهروب منها، وكلما ألح في طردها تكثفت أكثر، تذكر يوم أراد السفر لزيارة صديق له في اليونان، كيف جن جنونها واهتمته أنه لا يحبها وإلا لفكر باصطحابها معه، بل اهتمته أنه مسافر ليخونها.... النتيجة كانت أن اعتذر لصديقه عن زيارته في اليونان.

أفاق على شعور ملح بالرغبة بالتبول، للوهلة الأولى لم يعرف أين هو؟ كمن أصابه فقدان ذاكرة، ثم تذكر لم هو في الفندق، هل حقاً قرر هجر المنزل؟!

أحس بطعنة ألم في قلبه وهو يتذكر أن ابنه الأصغر لديه امتحان الشهادة الإعدادية بعد أيام، وضع رأسه تحت الماء البارد شاعراً بطعم دموعه الساخنة المالحة في فمه، مميراً إياها عن الماء شديد البرودة ودون أن يجفف وجهه ورأسه خرج من الفندق، قاد سيارته بيدين مرتعشتين كقلبه، وحين دخل سجنه الأنيق رآها جالسة في الصالون محتقنة الوجه متورمة العينين وفي حضنها علبة مناديل ورقية مستعدة لتلقف دموعها ولعابها... أخذ نفساً عميقاً استعداداً لمسرحية الجنون.

جسد بلا رائحة

لماذا يتزوج الكهول؟! هذا ما كانت تفكر به وهي جالسة على الأريكة الكبيرة في الصالون الفسيح، والقاطع الخشبي العريض يحجب زوجها عنها، لم تكن ترى منه سوى قدمه العارية تنتهك نظرها بقبحها، بأظافرها الطويلة المهيئة الأشبه بمخالب خشبية، وظفر الإهام المسود من الفطر، نبهها جلده السميك المبقع كم يشي الجلد بالعمر، لم تستطع أن تبعد نظرها عن تلك القدم المقرزة والتي يمررها على فخذيها وساقها أثناء حفلة الغرام المريعة بينهما. أحست أن أصابع قدمه الخمسة أشبه بعيون مشوهة تحديق بها، وكأنها تذكرها بأنها لو وفقت بزواج شاب لما تزوجت العجوز. هزت رأسها مذعنة للحقيقة وأقرت أنها تزوجته بملء اختيارها زواج العقل والمصلحة بعد أن يثست من الحب المتكافئ والمنزلة من الأغراض، كانت في منتصف عقدها الرابع تعيش أوضاعاً أسرية خانقة محشورة مع تسعة أشخاص في غرفتين، أم وأب مريضين دوماً وغارقين في الكآبة، زوجة أخيها مع أطفالها الخمسة تنذب حظها طوال الوقت وتشكو سوء الحظ، هي التي شجعت زوجها على العمل في التهريب فأودع السجن بعد العملية الأولى... أخيها الأصغر طالب الجامعة العصابي الذي لا يجد مكاناً لكتبه ويعجز عن الدراسة في هذا البيت الحقيق وهي العانس التي عانت من خيبات الحب المتنوعة وفقدت أملها في الحصول على زوج يقاربها في

العمر يكون صديقها في معركة الحياة القاسية، في هذا البلد المتخلف لا أحد يستغرب أو يستنكر أن يتقدم رجل في الستين أو السبعين للزواج من امرأة في الثلاثين أو الأربعين! الرجل لا يعيبه عمره، زواجها كان مُدبراً عن طريق وسيط، صديق أخيها منذ الطفولة أقنعها بالزواج من المحامي السبعيني المشهور والثري، سيؤمن لها حياة كريمة وسيعطف على أسرتها كان المحامي رجلاً مثقفاً معروفاً بمؤلفاته في مجال القضاء، لا تنكر أنها أحست بنشوة انتصار وهي ترى رجلاً مرموقاً في المجتمع يتقدم لخطبتها، ورغم سنواته السبعين فإنه بدا أنيقاً في بذلته الكحلية وربطة عنقه القرمزية.

قبلت مدرسة الابتدائية الأربعينية الزواج من المحامي السبعيني علاقة اعتقدت أنها متكافئة إلى حد ما، فهو يقدم لها الاستقرار والثراء وهي تعتني به في شتاء عمره، لكنها صُغت منذ الأيام الأولى، فالعيش معه تحت سقف واحد كان يفوق تصوراتها وقدرتها على الاحتمال، فمن الليلة الأولى صفعها ترهل جسده المُقرف أحست أنها خُذعت لأنه كان يبدو معقولاً ببذلاته الأنيقة، أما وهو عارٍ بكرشه المندلق الرخو وتدييه المتهدلين وأشعار جسده القليلة المبعثرة المصفرة، ورقبته المجمدة ورموش عينيه وحاجبيه اللتين تساقطت أشعارهما فهذا ما جعلها تحس بالغشيان والقرف لحد أنها تمنّت له الموت من كل قلبها وحققت عليه لأنه يتجراً ويتزوج! كان متعطشاً لجسدها، لجسد امرأة لا تزال في بهائها، في قمة نضوجها برائحة الأنوثة المتكثفة في جسد امرأة أربعينية رشيقة ورياضية لم تتحمل قبلاته العشوائية أحسته نسي كيف يتبادل العشاق القبلات، انتابها إحساس أنه يعتمد على مخزون ذاكرته الغرامية عساه يُعيد الحركات ذاتها التي كان يمارسها حين كان شاباً، تهربت من شفثيه اللحميتين المهترئتين واللتين أحستهما كممصين، بأن وجهت

وجهه إلى صدرها ودفنته بين ثدييها، بدا منتشياً حتى الضياع بالنهدين، لم ينفك عن مداعبتها وعصرهما حتى صرخت من الألم قائلة وهي تكظم غيظها: ليس هكذا.... أقصد ليس إلى هذا الحد.

لكنها أرغمت نفسها على مداعبته قليلاً مدارية رجفة تنتابها بسبب شدة توترها وقمعها العنيف لقرفها منه، حاولت أن تفكر وجسدها عار بجانب جسده الذي يحرض قرفها كل لحظة أنه كريم معها أعطاهما الفيلا وسمح لأسرتها أن تسكن الشقة الواسعة التي يملكها في طرف المدينة كما أنه يسمح لها أن تصرف بلا حدود على لباسها وأغراضها الشخصية.

غير جلسته فغابت قدمه المقرزة عن نظرها، كان يتابع حواراً سياسياً في التلفاز وهي جالسة بالوضعية ذاتها على الأريكة مستغرقة في خيالاتها الكيبيّة، تذكرت أنها سمت علاقتها الجنسية به "بمضاجعات البول" لأنه كان يبللها ببوله رغماً عنه لأنه مصاب بالسلس البولي ويداري خجله بمزاح ثقيل، ولم يكن يجد حرجاً في إحضار منشفة ليحفف جسدها الملطّخ

ببوله، كانت تتحمل كل هذا القرف مذهولة بقدرتها على التحمل، وراغبة في الوقت ذاته على التعرف على المظاهر المريبة للشيخوخة مكررة سؤالاً يزداد إلحاحاً في نفسها: لماذا يتزوج الكهول؟! كانت تضطر أن تعتني به أثناء حفلة الغرام الزائفة كما لو أنها تعتني بمريض وحين كانت أنفاسه تتلاحق لاهثة كأنه مصاب بالربو كانت تخشى أن يموت بين ذراعيها.

لكنها بعد أشهر من زواجها استطاعت أن تجد نوعاً من التوازن في علاقتها معه فهو لا يحتاج جسدها إلا في أوقات متباعدة كل أسبوعين أو أكثر، صارت تبالغ في الشراء تتفرج على نفسها كيف

تشتري وتشتري كمن يرغب بسد فراغ كبير في روحه، لكن عبثاً، ثم ترمي بمشترياتها في خزانها، وغالباً ما تنسى ما اشترته فتعيد شراء الأغراض ذاتها بعد أيام!.

كل صباح كانت تتأمل به عين متفحصة وتقيس المسافة بينه وبين الموت، حيرها إحساسها بالإرهاق الشديد منذ الصباح رغم ساعات النوم الطويلة، لكنها مع تعاقب الأيام عرفت سر إرهاقها، فالصباح يشرها بقدم نهار كامل مع العجوز، ثم بدأت مشاعر جديدة غير متوقعة تدهمها فتحس كم هي تافهة، لم تشعر من قبل أبداً أنها تافهة رغم قسوة الحياة، أما بعد زواجها منه فبدأ هذا الشعور يسيطر عليها فكل يوم تقوم بالواجبات ذاتها، تحضير فطوره الخاص المعتمد على القمح وعصير البرتقال وبعض قطع الفاكهة المجففة ثم إعطائه سلسلة من الأدوية التي يريد أخذها من يدها حبة بعد حبة ومن واجبها أن تحدثه في الصباح أي كلام فهو يحب الثثرة الصباحية تتفرج على نفسها كيف تتكلم شاعرة بفراغ كلامها مدركة كيف تخرج الكلمات منها غريبة فتستغرب كيف تلفظها بعد زواجها صار هناك غربة بينها وبين اللغة فكلامها شيء وروحها شيء آخر، نمت لديها هوايات غريبة فصارت متلهفة لمتابعة أوراق النعي، تسجل إحصاءاتها في دفتر وكم أحست بذعر حين كانت نسبة وفيات الشباب بين الأربعين والخامسة والأربعين تفوق بثلاثة أضعاف وفيات الكهول بعد السبعين، أحست بطريقة ما أنها يمكن أن تموت قبل زوجها أرغمت نفسها بالقوة على الامتناع عن تلك العادة الغريبة في ملاحقة أوراق النعي.

ياه ما أسخفها حين تشعر باليقين أنه سيموت قريباً وسترث الكثير منه وستسكن في الفيلا الفخمة وحدها، كانت تفهم العيش أنه

كثافة وامتلاء، أما الحياة مع العجوز فقراغ، أيامها معه أشبه بأسفنجة ممتلئة بالتجاويف الفارغة وفي أوقات متباعدة كان يصحبها لزيارة بعض أصدقائه في جيله كهول على حافة الموت مطرودين من الحياة - هكذا تحسهم - تختضر من الضجر واليأس وهي تصغي لأحاديثهم عن العمليات الجراحية التي تعرضوا لها من زرع عظم عنق الفخذ إلى زرع عدسة داخل العين إلى تركيب سماعة في الأذن بسبب الصمم... وإذا غيروا تلك المواضيع فيتحدثون عن أصدقائهم المرحومين الذين سبقوهم إلى الدنيا الثانية! ذات يوم تجرأت وسألته إن كان يخشى الموت فأخبرها أنه يرتب لموته كما يرتب لسفر ما.

لم تكن تتوقع أن تصبح فظة وأنانية بعد زواجها منه، كانت تتقي حبات الفاكهة الطازجة وتأكلها تاركة له الفاكهة الذابلة مثله وحين يوصيها لتشتري له غرضاً ما تشتري دوماً أرخص الأنواع كأنها تقول لنفسها: يكفيه هذا النوع الرخيص وهو على بعد خطوات من الموت، لم يكن يعترض على سلوكها لأنه أساساً لا ينتبه لشيء، رجل ماتت رغباته حتى شهوته الجنسية ذابلة، إنها ذيول رغبة متبقية من أيام الشباب بقايا مشاعر خبرها ذات يوم وعاشها.

ففي قلب اشتهاؤه لها يحس بتعب يكفيه من جسدها قبلات يابسة ومداعبات لا مجدية، كانت تتأمله كيف يتفرج على جسدها كما لو كان مراقباً في تجربته الأولى، إنه يحس برهبة تجاه جسد أنثى تضج بالعافية والشهوة.

جعلها تحس كم أن الشهوة في حالتها صراع مع النفس لا يرحم، يزداد استعاراً كلما أرادت لجمه، قبل زواجها منه كانت قد نسيت عالم الرجل بسبب أزمت الفقر المهينة التي تنتهكها كل لحظة، كل تفكيرها كان مشغولاً بإيجاد حلول للأزمة الاقتصادية الخائقة في أسرهما،

لكن بعد أن تدفق المال بين يديها وبعد علاقتها مع زوجها الوهمي وجدت نفسها تفكر بالرجل

تنوq لرجل فتي تفنى بين ذراعيه، يخترقها ويملاً فراغ روحها. صارت تلجأ لحضور أفلام خلّاعية لتمتع نفسها مستسلمة لكآبة المتعة الانعزالية متأملّة بعينين أسهدهما الحرمان على أجساد رجال شبان، وكم كانت تطيل الوقوف عند باب غرفته تتأمله غافياً بحقد شاعرة كم هو عبئ عليها، وفي المساء حين تقف أمام المرأة متفحصّة وحدتها المثالية ماسحة بشرتها بأفخم أنواع المساحيق تحديق بتبدل ملامح وجهها، ملامحها التي كانت توحى بالسلام، تبدلت فهي توحى بالانهيار النفسي يوماً بعد يوم.

لم يكن العجوز معنياً بما يحدث في روحها بل لم يخطر له هذا التساؤل أبداً! فهو يعتقد أنها مستقرة وسعيدة وما كادت تكمل عامها الثاني في قفص الزواج حتى بدأت تتساءل بنفاذ صبر عن مفهوم الفضيلة؟ ما معنى الإخلاص لرجل تجاوز عقده السابع عين ومقرّف؟ كم هي إنسانية الخيانة في حالتها، اقتنعت أن من واجبها تجاه نفسها البحث عن عشيق مناسب قلبت احتمالات كثيرة ودرستها جيداً، على العشيق المختار أن يلزم السرية وألا يطمع بمالها، لكنها ارتأت أن تعدد عشاقها ففي ذلك أمان أكبر من الفضيحة، اصطادات عشاقها بذكاء، من طالب جامعي إلى شاب في الجنديّة وأحياناً بعض المحامين المتدربين الذين يقصدون زوجها لاستشارته في قضايا قانونية معقدة، كان يكفي أن ترسل بعينها شحنات من اللهفة والإثارة لصيدها حتى يتبلبل كيان الرجل وينقاد للغواية.

لم تكن متعتها مع عشاقها جنسية صافية إذ كانت تنجّل من التعبير بغفوية عما يُمتعها بل كانت تجدّ متعة هائلة من مجرد ملامسة

واحتضان جسد شاب فتى له رائحة، تنبّهت أن العجوز لا رائحة له، وأنه حين يطلب إليها أن تغسل قمصانه تشمها فلا تجد أية رائحة خاصة به، جسد لا يفرز نسغ الحياة، رجل مُطفئ، تحس حياته أشبه بآخر شحطة من سيجارة ثم رماد كلي.

لكنها بعد كل خيانة كانت تشعر برقة صادقة نحو زوجها العجوز، تنبّهت لفظاظه عشاقها وأنانيتهم وقارنتها برقة العجوز وحنوه ولباقته، مكتشفة العلاقة العكسية بين الرأفة والحنان من جهة والقدرة الجنسية من جهة ثانية.

ربما يضطر الرجل الفاقد للقدرة الجنسية أن يصير أكثر حناناً مع المرأة كنوع من التعويض أو الاعتذار لها عن عجزه، لم تكن علاقتها العابرة تسعدها ولا تشعرها بالإشباع الجنسي المرتبط لديها بالإشباع العاطفي، كم كان قاسياً ومُهيناً أن تتعري بين ذراعي شاب لا تعني له سوى وعاء لإفراغ شهوته ولا يعني لها سوى وسيلة هروب ولإبعاد شبح الموت عن تفكيرها، مشكلة العيش مع العجوز أنها صارت دائمة التفكير بالموت، إذ تحسه يتأبط ذراع الموت في كل حركة يقوم بها، فإذا تأخر قليلاً في الاستيقاظ تعتقد أنه مات. إنه رجل بلا مستقبل لأنه مجرد ماضي، كم كانت تُدهش حين يحدثها عن مشاريع سيقوم بها بعد عام مثلاً.. تطل من عينيها نظرة تعني: هل تضمن أنك ستعيش حتى السنة القادمة؟!.. تدهشها غريزة الحياة فالإنسان مهما تقدم به العمر لا يرى الحساية مؤقتة بل أبدية. قمة نشاط العجوز حين يطلب إليها أن يتمشياً قرب البحر يقبض على ساعدها بقوة خشية السقوط، في البداية اعتقدت أنه يمسكها بتلك الطريقة لأنه يحبها لكنه حدثها عن فزعه الكبير من كسور الشيخوخة. وأحياناً يتعكز على عصا فتشعر كم يضح كيانها بالرفض والألم، كانت تمشي بجواره تنصت لأحاديثهما

الذابلة فخيالها لا يكف عن فرز صور تعذبها بأنها تتركه وحيداً مع عصا شيخوخته وتنطلق راكضة بقوة حتى خط المدى حيث يتعانق البحر مع السماء في تلك القبلية الخلّية الساحرة.

في لحظات كثيرة كانت تتفرج على صور شبابه وتحاول بطاقة خيالها عيش تجاربه العاطفية والجنسية، ياه كان جميلاً فيما مضى.... تحولت نغمتها الخاصة إلى نغمة عامة على المجتمع، كيف لا يستنكر الناس زواج الكهول؟!.. أي رضى نفسي وقبح وانتهاك لقدسية العلاقة بين المرأة والرجل حين تتزوج شابة عجوزاً؟! أين ضمير الناس؟ إن ذلك أشد قبحاً من الزنى! لكنه شرعي! عجباً كيف يكون شرعياً!! لم تنتبه له واقفاً قبالتها بعباءته الشفافة التي تشف عن جسده الذي يثير غشاها يطلب إليها أن ترافقه إلى غرفته وتمدد بجانبه قليلاً حتى يغفو.

ردت على كلامه بابتسامة مسمومة وعدته أنها ستلحقه بعد لحظات، ابتلعت جرعات كبيرة من النبيذ مستمتعة بطعمه الحارق وهي تقول لنفسها بسخرية مريرة: خسرت نفسي بطمعي، الطمع دمري تماماً.

مشّت باتجاه غرفة العجوز وثمة يقين يهبط عليها ويحيط على رأسها كخوذة من حديد، بأنها ستموت قبله.

جھيلة

سمّوها جميلة لأنها انتزعت شهقات الإعجاب حين ولادتها، فوزنها عند الولادة كان خمسة كيلو غرامات ووجهها مدور وردي، عيناها خضراوان واسعتان وزغب كستنائي ناعم يكسو رأسها، تخلّق أخوتها الخمسة الذكور حولها متأملين المولودة كدمية جميلة، ابتسمت الأم شاعرة بالانتصار كونها أنجبت طفلة بهذا الجمال قالت: فلنسمها جميلة. حتى عامها الثالث ظلت جميلة الطفلة المدللة تتناقلها الأيدي وتتململ من القبلات والمداعبات، تضجر من الهدايا وترمي ربطات شعرها الملونة من النافذة بنزق، في منتصف عامها الثالث أصيبت جميلة بالتهاب سحايا هدّد حياتها، أدخلت المستشفى ورغم العناية الطبية المكثفة لم يتمكن الأطباء من سحق الجرثومة الخطيرة التي خرّبت مناطق حساسة في دماغ الطفلة، خرجت من المستشفى بلهاء تماماً واستمرت بالنمو وجعاً يؤلم أسرتها، كانت فتاة بكامل جمالها وأنوثتها وإنما بلهاء.

دخلت جميلة خانة المعاقين ونسيت أسرتها أنها كانت ذات يوم طفلة متوقّدة الذكاء، وحين قوي عودها أوكلت لها أعمال الخدمة المنزلية فكانت تقضي معظم وقتها في المطبخ تساعد أمها في الطبخ، تجلي وتمسح، تغسل ثياب أخوتها الذكور وتكويها، دون أن تسمع منهم كلمة شكر، فمن يشكر بلهاء؟!.

و حين تزوج أخوتها كانت زوجاتهم يستعرن جميلة لتساعدن في الأعمال المنزلية الشاقة، لم تكن تتحمل أو تشعر بالظلم، فالبلاهة حميتها من الإحساس بالاضطهاد، كانت تعمل لساعات طويلة ويدها تتورمان وتتشققان والابتسامة التي لا معنى لها مرتسمة على وجهها الجميل. البلهاء الحلوة تعيش عالمها الخاص، فكل يوم عصراً وما أن تنتهي من أعبائها المنزلية تخرج إلى الشرفة بمريلة المطبخ المبللة والمتسخة، تقف في الزاوية تنظر إلى البعيد وتخطب أشباحها، تقاثلهم، تعتب عليهم، تذرف دموعاً سخية وهي تناجيهم، تلوح لهم بيديها تفرد ضفيرتها الطويلة وتسرح شعرها ثم تعيد ضفرها، تعود الجيران على طقوس جميلة فما عادوا يولونها أي اهتمام.

في أوقات متباعدة كان أخوتها يقدمون لها هدايا مهترئة كأحاسيسهم، عبارة عن ثياب عتيقة لزوجاتهم، لم يخطر ببال أي من هؤلاء الأصحاء أن يشتري ثوباً جديداً لجميلة، لكن جميلة تشكرهم من قلبها الطافح بالحب للعالم كله على هداياهم، وحدها الأم أصرت أن تهدى جميلة أسواره ذهبية كل عام، كنوع من الوقاية من غدر الأيام. تُعامل جميلة كحيوان أليف، فتُعطي مكافآت بسيطة حين تجيد العمل المطلوب منها، حوّلتها الإعاقة بنظر أقرب الناس لها إلى لاشيء، وحين مرضت ذات شتاء بالتهاب في رئتها ولزمت الفراش شهراً، جن جنون أخوتها لأن آلة الخدمة تعطلت، ولم تتحرك أحشاء أي منهم بالحب لأختهم التي يحتقرون إعاقتها، بل إن أحد أخوتها قال: لا ينقصنا إلا أن نخدم البلهاء، ووافق الجميع على رأيه.

من حسن حظ جميلة أن بلاهتها تحميها من قسوة البشر، أكملت الصبية الخامسة والعشرين من عمرها وأيامها تتجرجر في الخدمة، لم تشك يوماً، وحين كانت تعاني من آلام في ظهرها كانت تستلقي على

الأريكة لساعات مستسلمة لأحلام يقظة غنية. كل عالمها لا يمت لعالم البشر بصلة فكل يوم تخاطب أشباحها، لم ينتبه أحد أن شاباً عابثاً كان قد استأجر غرفة مقابل بيت جميلة صار يترصدها، فأخذ ينتظرها كل يوم ويخاطبها بالإيماءات ذاتها ويرسل لها قبلات عبر الأثير، جمدت جميلة وهي ترى أحد أشباحها يتجسد أمامها رجلاً من لحم ودم تبلبل كيانها وعرفت الأرق لأول مرة في حياتها، لم تكن قادرة على التفكير فأفكارها مغشاة بالظلمات، لكن من قلب عالم البلاء الهلامي فاضت روحها بشوق وحنين مخترنين في روحها، الحب أقوى من العقل وأكثر أصالة، الحب عفوي حتى في قلوب البلهاء.

لم يبال أحد ببلهاء الحارة المنسية، فالكل منشغل بنفسه، ولم يلحظ أي من أخوتها أن الشاب العابث أخذ يستدرج جميلة إلى غرفته ويعريها من حياتها وبلاقتها وأساورها الذهبية، قدّمت له جسدها مُطيعاً مستوهجاً، معرفاً إياها على ملذات لم تتوقعها أبداً ولم تعرف بوجودها من قبل، كان شعورها نحوه أقوى من الغريزة، إنها كالمخمورة تترنح وجداً، لم تجرّب من قبل أن يعني لها شخص كل حياتها، كيف صار زمنها ينساب بنعومة فائقة وهي معه.

صار بالإمكان ملاحظة شعاع الحب في عيني جميلة، تلقت بفرح سخرية أخوتها لأنها صارت تفرد ضفيقتها، اختفى الشاب بعد حصوله على أساور جميلة الذهبية، ولم يبال بانكشاف أمره، سينكر كل شيء صارخاً في وجوه أخوتها: من يصدق بجنونة، إنها تكذب...

لم تبال جميلة بالضرب الوحشي الذي تعرّضت له، كانت غائبة عن عذاب الجسد، تبحث هناك في تيه معتم بلا قرار عن حبيب حمل معه سعادة صاعقة ومباغطة عاشتها معه، إنها تنظر حائرة في آلام قلبها ولا تعرف كيف تداويها، تريد عوناً من هؤلاء الأصحاء العقلاء عساهم

يرحمون قلب عاشقة..... تنظر إليهم بعينين محبتين دامت متسائلة
بنظرة خرساء: لماذا تضربوني كحيوان؟!..!!

عادت جميلة إلى عادتها في مخاطبة أشباحها كل عصر، قررت
الأسرة ألا تلبس جميلة ذهاباً أبداً، وأن تمنع من مغادرة البيت.... صار
صوت جميلة مرتشحاً بالحزن مبللاً بالدموع وهي ترنو إلى شرفة
الحبيب الخالية وتناجيه.

قد يتمكن الزمن من بلسنة آلام جميلة العاطفية، لكنها لن تدرك
أبداً أنه ليس من عادة الشيطان أن يؤاسي ضحاياه.

حب في زمن العولمة

كانت تنتظره بكامل أهتمامها الروحية والجسدية، وقد أجلت وضع القناع المغذي للبشرة حتى موعد حضوره، لتكون أكثر ما يمكن طازجة وجديدة حين تلقاه، لم تكن تعرفه إلا منذ زمن قصير معرفة سطحية لا أكثر، كانا مثقلين بخيبات التجارب الحياتية - العاطفية خاصة - تلك الخبرات التي تعطي الإنسان موهبة فهم أعماق الآخر من مجرد النظر في عينيه. كانت تشعر أنه مضى دهر لم تحب رجلاً، ولم يلمسها أحد، تلمس جلدتها فتحسه جافاً كالقش، لم تعد تطيق أن يظل الرجل مجرد حلسم، إنها تريده واقعاً. صار شغفها بالرجل واعياً ومتعمداً، وأخذت تبحث بإلحاح وإصرار عن تجربة من أجل إعطاء بهجة لحياقتها، الحرمان الطويل أشعرها أنها تتحول لمراهقة، فهي تستثار وترتعش حين تتأمل المشاهد العاطفية في شاشة التلفاز، الحرمان صعب، هذا ما تؤكد له لنفسها كل يوم مكتشفة المظاهر اللا إنسانية والقاسية للحرمان. لم تكن تجد الهمة ولا الرغبة لتعتني بأظافر يديها وقدميها والاهتمام بنظافة جسدها من الأشعار. لسان حالها يقول: لماذا علي العناية بتفاصيل جسدي في غياب الرجل؟! لكن لأجله، لأجل شهيتها المتفتحة للحب بسببه أخضعت جسدها لعناية قاسية كما لو أنها تستعد لحفلة عرسها.

أقرت بينها وبين نفسها أن وجود الرجل يعطيها موجات من المشاعر الدافئة التي لا تنضب، لكنها تجرأت واعترفت لنفسها أيضاً أن

غايتهما اللذة ففي غياب الحب يستسلم الإنسان للملذات مضطراً، لم تخجل من تلك الحقيقة فقد فطرت على ازدراء أي خداع لنفسها، كانت تحس بقوتها الذاتية وتنتشي باستقلاليتها، لم تعد ضحية الرغبات الذكورية، لم تعد صيداً، بل صارت صانعة مغامراتها.

كانا يعرفان - كل على حده - أن ما يجمعهما هو هوى التجربة وليس الحب. الحب صعب في عمر النضج والخيبات، لكنه يظل مثيراً ومغرياً، استعدت لاستقباله، قدمت إجازة من عملها، اشترت سمكاً فاحراً كي يأكلانه مشوياً في مطعم على البحر، لبست الثياب التي تعتقد أنها تبدو فيها أكثر إثارة وأصغر سناً، وجلست مضمخة بالعطر والترقب ترشف قهوة انتظارها الفاترة.

فكرت بقلق حقيقي ماذا ستفعل برفقته ليومين؟! شعرت أنها في محنة حقيقية، فهذا الغريب لا يجمعها به سوى جوع الحرمان. حاولت تخفيف توترها باللجوء للسخرية كعادتها، أطلقت على مغامرتها الجديدة: الحب في زمن العولمة. وكى تخفف موجات الاكتئاب التي بدأت تغزوها، حاولت أن تضع نفسها مكانه، سيقود سيارته أربع ساعات في حر تموز ليلقاها، بدت لها تلك الحقيقة مرعبة ومدهشة في آن؟! أي جنون يجرفان نفسيهما إليه؟! ما الذي يربطهما ببعضهما كي يتحمل مشقة هذا السفر! لم يتأخر عن الموعد المتوقع لوصوله، استقبلته بحفاوة اجتهدت أن تبدو طبيعية دافئة خجلاً عميقاً كاد ينفلت من عينيها ويفضحها. تبادلوا قبلات على الوجنتين، حاولت تجاهل رائحة عرقه، عذرتة فقد قاد سيارته أربع ساعات في الشمس، شربا القهوة وتبادلا أحاديث عامة، اكتشفت عدم وجود أي موضوع حقيقي يتحدثان به، كان عليهما خلق مواضيع الحوار، دخن سيجارتين مع فنجان القهوة وأخبرها أنه لم ينم جيداً الليلة الماضية. استأنفا رحلة

الاكتشاف بالبحث عن محطة للوقود، كان قلقاً فعليه ملاً خزان سيارته بالبنزين، لم تكن تقود سيارة، فتاها في شوارع محفورة من أجل مد خطوط للهاتف.... من سوء الحظ أن المكيف في سيارته معطل، كان عليهما فتح النوافذ وتلقي هواءً مشبعاً بالرطوبة والغبار. أكثر ما تكرهه الرطوبة، تجعلها عصبية رغماً عنها، لكنها ألزمت نفسها بالضغط على أعصابها والتظاهر ببهجة زائدة... كانت تتفرج على بؤسهما كأنهما مسجونان في علبة وسط شمس حارقة وشوارع مختنقة بالغبار، حاولت إرغام نفسها على الفرح، لكن عبثاً، فداخلها مُطفئ وبُحَّت نفسها على ذبولها وبدأت لها الساعات الطويلة التي تنتظرها معه ثقيلة تنبّهت فجأة لشعور مباغت دلّها كم أن روحها جريحة، وبأنها ستعجز عن تحمل تجربة مفتعلة مع رجل تشعر نحوه بالذنب لأنها شجعتة على زيارتها ليخوضا مغامرة عاطفية هوجاء، تمت لو يحدث اصطدام وتتحطم سيارته كي يعفيهما القدر من تلك التمثيلية، فكرت كم أن الحب يظل دوماً موضع شك أما الكره فمؤكد دوماً. الحب زائف أما الكره فحقيقي.

"حب في زمن العولمة" هذا ما ينجح ذهنها بابتداعه، أخبرته أنها استأجرت شاليه ليلتقيا وبأن الوقت لم يسمح لها بتفحص الشاليه بدقة، إذ أنها تخشى من نظرات الفضوليين، أثرّ فيها لطفه، رغم إحساسها أنه يجاهد ليبدو طبيعياً، ليفهمها أنه سعيد، لكنها كانت متأكدة أنه يحدث نفسه على النحو التالي: هل تستأهل تلك المرأة الغريبة أن أستيظ باكرأ وأقود سيارتي أربع ساعات متواصلة لأراها.

أحست بخيبة لأنه لم يُطر على شكلها أبداً، لماذا لا يقول لها ولو من باب المحاملة تبدين جذابة وجميلة، استسختت نفسها كونها تنتظر غزلاً، دلته على طريق الشاليه المعزولة والقرية من البحر، وحين دخلها كانا منهارين من الحر والرطوبة وقد التصقت ثيابهما بجسديهما غزتها رائحة

عرقه أكثر فأكثر، قماش قميصه يرسم دائرتين رطبتين كبيرتين تحت إبطيه، لكن العتمة النسبية أدخلت نوعاً من الهدوء إلى روحها المضطربة، أحاط خصرها بذراعيه وتبادلا قبلات فماً لفم، قبلات يفرضها الموقف وليست نابعة من الشوق، الشيء الوحيد الذي كانت تتمناه بكل جوارحها أن تتحرر من حمالة هديها تحديداً لأنها ملتصقة بشدة بنهديها، فكرت بسخرية أليمة أن الأشهر الطويلة الطويلة التي قضتها تتحرق للقاء رجل تنجذب إليه تُكلل بالكآبة الخائفة، كانت لا تجرؤ أن تعبر عن عمق خيبتها، فتركت مشاعرها تنبثق من عينيها، إنها هنا في هذه الشالية البائسة مع رجل قاد سيارته في الشمس أربع ساعات متواصلة ليلقاها من أجل لا شيء، وبدون ذرة حب!! اكتشفا طعم شفاههما، كان يمكن لمشاعرها أن تُثار، لكن رائحة عرقه المتفاقمة أحبطت شهيتها للحب، لكنها أدركت أن ما من مفر للتراجع، بدأت شيئاً فشيئاً تفقد إحساسها بذاتها، وبدأ ألم روحها ينغلق على ذاته ويعتصم في الصمت، حدثت نفسها بأن العلاقة بين المرأة والرجل أشبه بمأزق أحياناً، وفي بعض الحالات يجب الاستمرار في الخداع لأن التراجع مؤذٍ ومهين للطرفين.

تحسست جذعه الضخم مكتشفة كم أن السمينة منقّرة. بدت لها راحة يدها صغيرة وهي تنزلق بين ثنيات لحمه، ياه كيف انطفأت شهوتها له كلياً، من أين غزاها كل هذا الموت؟ وأين تلك الأشواق الملتهبة التي نمت بينهما عبر سماعة الهاتف؟!..

أي قدر ساخر يعيثُ بهما؟ ما بها مثل امرأة مات جهازها العصبي، كان يتحسس براحتيه الضخمتين هديها وخصرها ومؤخرتها دون أن تحرك فيها يديه أي شعور ووجدت أن من واجبها مداعبة جذعه الضخم الذي تنضغط فيه، كانت تشعر أنها جماد، وتحت قمة هرم كرشه قاد يدها إلى عضوه المنتصب، فكرت أنه يجب أن

يكون متناسباً مع ضخامة جذعه، أضحكته تلك الفكرة، فانفلتت منها ضحكة عفوية، اعتقد أنها تضحك كي تداري خجلها، بدا منتشياً وهو يثبت لها قدرته الجنسية، ولا تعرف لماذا أحست بضرورة اللجوء لشيء من الدعابة فالوضع بينهما معقد وأصبح بالنسبة لها لا يطاق، هناك شيء خائق بينهما وحولهما، لا تعرف تحديد ماهيته، قالت له أنها تقرأ ألف ليلة وليلة وبأن عضو الرجل يُسمى مولانا، ضحك مكرراً ما قالت، تعمدت أن يتغازلا تحت مروحة سقفية وحيدة صدئة ومتعبة لكثرة ما شهدت من خيبات العشاق، تحرك الهواء قليلاً حولهما لكن الرطوبة غير محتملة، أثاث الشاليه قديم ومخلّع وتفوح منه رائحة رطوبة عفنة وقديمة، قادها إلى غرفة بائسة ليتمددا على فراش بلا شر اشف، فرشاة عتيقة عارية، خلع قميصه فحنقتها رائحة عرقه وأصابتها بغثيان حاد، ثمنت لو تملك الجراة وتطلب إليه أن يستحم، حسدت العشاق والأزواج الذين تربطهم الحميمة، مع هذا الغريب كيف ستطلب إليه أن يستحم؟ لكن عجباً ألا ترعجه رائحة جسده؟! تابع نزع ثيابه وجوريه وهي تنفرج عليه شاعرة أنها تمبط أكثر فأكثر في قاع الإحباط وبدأ إحساسها بالورطة يتعاضم، كلاهما متورط، ياه كم تمنى لو يحدث أي ظرف خارجي ليوقف تلك المهزلة المؤلمة بينهما، أبدت انزعاجها من الضوء، كم هو صعب أن يتعري رجل وامرأة للمرة الأولى تحت النور، قالت له: ليتنا التقينا في الظلام، أحسّا بالخجل من وضاعة المكان، انتبهت أن هناك سلسلة من البقع الوردية تغطي كرشه وخاصرتيه، بخلقت بها محاولة اكتشاف ماهيتها، سأله عن تلك البقع فقال أنها نوع من الفطر اسمه النخالية المبرقشة، تفزرت وانغلقت داخل نفسها كما لو أنها ترغب أن تسكن قوقعة، ودت لو تصرخ به: لكن الفطر يعدي وقد أصاب بالعدوى!؟

لكنها كبحت صراخ احتجاجها، فعليها أن تتابع هذا اللقاء
الجهنمي حتى لو كان صديقها مصاباً بالجذام، كان جسده موارباً وفوق
جسدها بقليل، وتفرجت على نفسها كالمشلولة وهي مضغوطة إلى
كرشه الرطب الممتلئ ببقع الفطر، ووجها على مستوى زنده الضخم
الرطب وجوف إبطه الذي ينفث رائحة تجعلها تدوخ من الغثيان، كان
وضعها بائساً لدرجة أحست أن التفكير بأية محاولة للنجاة لن ينفع.

همس بأذنها: لا زلت تحافظين على شبابك، ذكرتها تلك العبارة
بعمرها، بشبابها في طريقه للأفول، أحست بالأذى من كلامه هو الذي
افترض أنه سيبهجها، لم تستطع أن تطريه بكلمة فبدانته مُشوّهة فعلاً
بكتل الشحم المرصوفة على كتفيه وصدره وخصره، كان يتنفس
بصعوبة لأنه مدمن على التدخين ولوهلة أحسته سيموت بين ذراعيها،
كانا مُحاصرين في حتمية جنس كئيب باهت وميت، ولم يملك أي
منهما شجاعة فك اشتباك هذين الجسدين الغريبيين والهروب، كان
محكوماً بها وهي محكومة به، لم يعد جسده يعني لها شيئاً إنه كتلة صماء
لا تنقل لها أي إحساس، وهي متأكدة أنها لا تبث فيه إحساساً، وبدا
لها عريهما تافهاً وليس فيه أية إثارة.

صار انقيارها النفسي متسارعاً لدرجة خشيت أن تفقد الحد
الأدنى من اللباقة واللفظ معه اللازمان لمعاملته كضيف على الأقل،
تزايد دَبَق جسديهما، كم كانت تحلم بالاستحمام، التصق شعرها
برأسها من التعرق، أما جسده فكان يث روائح خائقة تزداد كثافة في
فضاء الغرفة، حتى كادت تُصاب بالإغماء، نبحت أخيراً في التملص
من هذا العري المهين واقتربت أن يذهب لتناول الغداء، ارتديا
ملابسهما وخرجا إلى حر الظهيرة، لم ترحمهما الشمس التي كان بها
فجور وغضب، وكم كانا مرهقين وهما يتبادلان ابتسامات المجاملة في

مطعم شعبي بجوار البحر، قدم لهما سمكاً مشوياً محفوفاً بالذباب
وصحن خضار مرتب بطريقة تدل على قلة الذوق.

القدارة تحوم حول المكان، وغير بعيد عنهما مجموعة من النسوة
يسبحن بكامل ثيانهن ورؤوسهن مغطاة، كانت تخرج أن تتأهب أو أن
تسمع لمشاعرها الحقيقية برسم ملامحها، لم يكونا سوى عاشقين زائفين
وبائسين، رغبا بالمتعة فحصدوا الكآبة، بعد الغداء كان لزاماً عليهما أن
يعودا للشاليه ليستأنفا غراماً زائفاً كانا قد بدا آه، عاددا للتعري وهي
تقول ساخرة من نفسها: عدنا للمهزلة!! اقترحت عليه أن يضع الفرشة
البائسة على الأرض تحت المروحة السقفية الوحيدة، فرز خيالها صوراً
مخيفة لرجال شرطة يدهنون المكان ويضبطانها بالجرم، إنهما عاهران
بنظر القانون، بدقة أكبر، وحدها العاهرة، أما الرجل فلا يوصف بتلك
الصفة، قرأت ذات يوم أنه يمكن لرجل يضاجع عاهرة أن يسلمها
بنفسه لقسم مكافحة الدعارة!!

كان التعب قد هدها تماماً، لم تكن بحاجة سوى للاستحمام بالماء
الفاتر والنوم لكنها متورطة مع هذا الجسد الهائل لإكمال مسرحية بدأت
ولن يسمح لها القدر ببتها، استأنفا العناق واللمسات، وهي تشعر كم
يزداد جسدها موتاً، وبدأ التعب يذله، فانطفأت قدرته الجنسية، وغدا
عيناً، أحست كم يؤلمه ويخرجه هذا الوضع، وكم يبذل جهوداً كبيرة
ليداري خجله وارتباك، أوهته أنها غير متأثرة بانطفائه، طلب إليها أن
تساعده وأن تبذل جهداً ليستعيد قدرته الاقتحامية، لكن جسده صار
يوغل في عناته، فكرت كم هو مهين موقف رجل في وضعه ولا تعرف
لمساذا أحست بالشماتة منه ثم من كل الرجال، أحست بالرضى كون
الأنثى طرف متلق في الجنس، حاولت أن توأسيه فقالت له بأن التعب
ونقص النوم والحر جعلوه متعباً، وافقها للحال على كلامها.

طلبت إليه أن يذهب إلى مقهى جميل ليشربا القهوة، انطلقا مجدداً في رحلة تسكعهما المنهكة والمدمرة للأعصاب والتي يعجز أي منهما عن إيقافها، ما عادت تطيق الحر، الرطوبة والحر يدخلانها في حالة عصبية يتطلب لجمها جهداً جباراً، وجهها يرسم الابتسامة البلهاء ذاتها، تجولا في طرق ريفية، وبدأت الشمس أخيراً تقارب المغيّب، أحست أنها تنفس الصعداء فالوقت يمر عادا إلى الشاليه متسللين كلصين وبإعياء أقرب لليأس تعرياً، كم أحست أن واجبها ثقيل ثقيل تجاه هذا الضيف الغريب الذي عليها أن تعيره جسدها، شعرت بفرح مبطن بالخفية وهي تتفرج على جسده موغلاً في عنانته، لا تعرف لماذا شعرت بسعادة خبيثة وهي تراقب جسد المارد يلهث ويجاهد ليثبت فحولته، سخرت منه وهي تردد بصمت وبلهجة غنائية لا حياة لمن تنادي، لا حياة لمن تنادي. كان نظرها معلقاً بأجنحة المروحة السقفية التي أحستها شاهدة على خبيتهما، تحول صوت تنفسه لما يشبه الدوي يملأ الفراغ حولهما. خافت عليه حقاً من الانهيار، وحين طلبت إليه أن يوصلها إلى منزلها لم يحاول استبقائها، بل أحست براحتة وانتظاره المتلهف لذهابها فلتتركه يللم تعب وهزيمته.

كانت بحالة انهيار نفسي وجسدي حين صعدت الدرج مستندة على الدرايزين لأنها أحست أن قواها نزلت منها كلياً ورغم إنهاكها، أجبرت نفسها على الاغتسال كي تطرد رائحته، ابتلعت حبة منومة، ثم حبة مهدئة، وبدأت تلاويح الفجر تتسلل مداعبة أهدابها المسهدة، كانت بحالة مخيفة من التوتر وهي تحاول طرد صور تنتهكها، صور لقاء دمّرها، أرادته لقاء حب وفرح ونشوة... لكنه كان كارثياً. ترى هل صار الحب انتهاكاً في هذا الزمن؟! أهذا شكل الحب في عصر العولمة؟!

ظل أسود حي

كانت ترتعش كعصفور مبتل بالمطر، حين طلب إليها طبيب النسائية بصوت ميت وقطعي أن تخلع سرواها وتمدد على سرير الفحص، أحست أنها تغوص في برميل من الهبولى وهي تسمع الطبيب ينطق بهذه البساطة العارية كلمة سروال. وفجأة ارتعش فمها بخلجات قوية جعلته يتقوس بشدة باتجاه الأسفل، ودت لو تبكي، لكنها زجرت نفسها فليس الآن وقت البكاء. وصرخ صوت ملتان في داخلها: بل هذا وقت البكاء، البكاء الذي لا ينتهي إلا بالقبر، البكاء الممتد عبر التاريخ، بل بكاء التاريخ نفسه، ورغم أزمته المتكثفة في تلك اللحظة، فإنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بتعبير بكاء التاريخ نفسه من خلال عينيها.

أمرها أن تخلع سرواها فيما هو ينتظر في غرفة مكتبه، وعليها أن تدعن، تنهدت وهي تقول: يا إلهي أية ورطة فظيعة هذه؟ وضعت حقيبتها على كرسي جانبي قرب سرير الفحص، وهمت أن ترفع تنورتها، لكن صوراً مباغته صفعتها وجعلت وجنتيها تلتهبان. تذكرت اللقاء المحموم مع حبيبها، كان يوماً حاراً في أواخر تموز وقد تواعدا على اللقاء سرّاً في بيت أخيه المتزوج حديثاً، سيكون الأخ وزوجته في الوظيفة، وهي ستهرب من المدرسة لتلقاه، سيرشfan الحب المختزن طويلاً في قلبيهما المتورمين من الحصر، ليعود هو بعد ساعات إلى

خدمته الإلزامية، وترجع هي إلى تحنيط أسرتها الأبدي، لم تكن تعرف أن الأمور ستسير كما سارت، وهي في الحقيقة لا تعرف كيف تتطور عملية لقاء رجل بامرأة، كانت ثقافتها الجنسية ضعيفة، حتى تشريح جسدها ما كانت تعرفه بدقة، فرت من المدرسة قبل ساعتين من انتهاء الدوام متعلقة بآلام بطنية، اعتقدت المديرية أنها آلام الطمث، كان قلبها يقرع كالطبل وهي تصعد درج الشقة المحرمة، وهناك كان ينتظرها بشوق مضاعف، ضاعفه إهانات الجندية والحرمان الطويل. لمست جبهتها لتؤكد أنها ليست صريعة حمى مباغثة. كان الدم يتدفق من أذنيها ووجنتيها، وكانت راحتها ساختين كـرغيفين، احتضنها، لم تمنع كما توقعت، أغمضت عينيها وهي تغيب شيئاً فشيئاً عن عالمها في المدرسة والبيت. فقدان ذاكرة كلي، شعور وحيد طاغ جمعها به، توحدت به واستسلمت لمتعة تبادل الأنفاس، وحين تمددا على السرير، همّت أن تقوم، مانعت، لكنها كانت تشعر أنها مصابة بدوار، جذبا من يدها، وأعاد التحامها به، ورفع تنورتها و.....

صفعتها هذه الصور وهي تهم أن تنفذ أوامر الطبيب، تجمد نظرها على سرير الفحص، لماذا هو قصير جداً؟ وما هاتان الرافعتان على جانبيه؟ دهشت أنه بالكاد يتسع لطفل في الخامسة من عمره، كان شرشفاً أبيض مطوياً بأناقة ينتظرها فوق السرير، سعت صوت الطبيب جافاً يسأل: هل أنت جاهزة ولم تعرف أن الصوت الذي سمعته مرتجفاً يجيب: لحظة سأكون جاهزة، كان صادراً عن حنجرتها، إذا عليها أن تدعن لما يأمر به الطبيب. تذكرت منذ سنتين يوم أصيبت بالتهاب قصبات حاد، كيف ذابت خجلاً والطبيب يكشف عن نهدتها ويضع سماعته المعدنية الباردة على صدرها، الآن عليها أن تخلع سروالها. أغمضت عينيها ما أقسى هذه اللحظة، جلست على حافة السرير بعد

أن كورت السروال في يدها، لم تعرف كيف ستمدد، أجهدت نفسها
لتقول وكأنها تلقي نفسها من شفير هاوية إلى العدم: أنا جاهزة.
دخل الطبيب، أمرها برود أن تتسطح، وأن تغطي بطنها
بالشرشف وبأن تباعد ما بين فخذيها قدر استطاعتها...
ندت عنها صرخة آه لا إرادية وقوية، قال أمراً: هيا لا تعطيني
فالعيادة تغص بالزبائن.

تساءلت: أين هو، وتخيلته في الخارج ينتظرها، ليته يكون إلى
جانبها لتتشجع. لكن كيف سيراه في هذا الوضع المهيّن؟ تسطحت
وغطت بطنها وساقها بالشرشف. تخيلت شفرة مقصلة لامعة وحادة
تهوى عليها وتريحها من الحياة وللحظة شع وجهها بابتسامة حقيقية
وعذبة، كانت تبتسم للموت. وتساءلت بعدوبة: أوه من قال أن الموت
بشع ومخيف؟ اقشعر بدنها وهي تحس براحتي الطبيب تباعد بين
فخذيها، كتمت صراخاً وعويلاً في داخلها كما تعودت أن تكتم أشياء
وأشياء. أمرها بصوت قاس: استرخي، أخذت أسنانها تصطك بقوة
مصدرة صوتاً كالقرقرة. قال لها الطبيب: استرخي لن أتمكن من
فحصك هكذا، قالت وسط قرقعة اصطكاك أسنانها: لا أعرف، لا
أعرف.

رأته يلبس كفا من النايلون ويدهن سبابته والوسطى بالفازلين،
شهقت وأغمضت عينيها هاربة من جسدها، وهي تحس الإصبعين
تسيران أعماقها.

صرخ: كفى، لا تتشنجي، قلت لك استرخي.
قالت ودموعها تتشكل ككرات من زجاج هش وتنهمر أفقية
على صدغيها:
- لا أعرف، لا أعرف.

رد ساخطاً: كل شيء لا تعرفينه، كيف عرفت أشياء أخرى؟

ابتلعت الإهانة. وجدت نفسها تتوسل إليه: أرجوك كفى.

كانت راحته الأخرى تضغط أسفل بطنها عند خط شعر العانة، كانت روحها تن قائلة: يا للعار، يا للعار، ولا تعرف كيف قفزت جملة إلى ذهنها لعلها قرأتها أو سمعتها: خمس دقائق لذة، تسعة أشهر ألم.

أين قرأت أو سمعت هذه الجملة، وأعملت ذهنها في التذكير هاربة من طريقة صلبها الاستثنائية، وتخيلت عابثة أن النساء يصلبن بهذه الطريقة، على سرير وهن يواعدن بين فخذيهن، وهلت لفكرتها وهي تؤكد لنفسها: نعم هكذا تصلب النساء.

أخرج إصبعيه من داخلها أخيراً، بعد زمن بدا لها دهرأً، أخذت رجفة حادة تخض جسدها، سألتها: ما بك، حسناً قومي، لقد انتهى الفحص.

وكأنه استدرك، قال: مهلاً انتظري لحظة، سأفحص رحمك لحظة على جهاز الايكو. قرب منها جهازاً له شاشة صغيرة تشبه شاشة التلفاز، وعصر هلاماً أسفل بطنها ضغط بقلم بلاستيكي فوق الهلام، وهو يتابع خطوطاً بيضاء وسوداء مترقصة على الشاشة، وأشار إلى نقطة سوداء لا تزيد عن عرض إصبعين قائلاً: هذا هو الحمل، عمره ثلاثة أشهر تقريباً.

أمكن لها أن تحس بومضة خفقان حب عجيب لهذا الظل الأسود، ظل جعل عاطفة قوية وخام تتحرك بقوة في أعماقها، تركها وحيدة وخرج، بعد أن أعاد الجهاز إلى مكانه. طفت عيناها بالدموع، هذه المرة دموع غريبة فيها حلاوة لم تعرفها من قبل، رغم طابع المرارة الشامل الذي يطبعها، قامت متبسة وهي تشعر أنها كبرت دهرأً.

لبست سرواها ودموعها تتساقط بغزارة على الثياب والبلاط. همست لنفسها بحب: في أحشائي جنين، رأيته، عاينته، أحببته كما لم أحب من قبل، أتراها اكتشفت مشاعر الأمومة في تلك اللحظة،

لم تستطع الخروج في الحال الآن لأن عاصفة الدموع كانت في ذروتها. ولعظيم دهشتها أحست بحب لا يوصف لذلك الظل الأسود الصغير الذي رأيته على الشاشة، ستجهض، آه بالتأكيد، ما من مفر، لا يمكن أن يتزوجا وهي الطالبة القاصر، وهو الشاب الذي يشحذ مصروفه من أخيه. يجب أن يداريا الفضيحة، لكن كيف تورطا، كيف لم تصن نفسها كما علموها، وشددوا عليها، كيف، أوه اتركيني الآن أيتها الكلمة الكريهة القاسية. هكذا صرخت، وهي تتهرب من الجواب، بل لتجيب بعد لحظة بعبث كامل: الجواب هكذا، هكذا، ما كانت تعرف شيئا عن فيزيولوجيا جسدها، ولم تسمع عن أيام الإخصاب من قبل... وما قيمة أن تعرف، حين يكون الحب لصا يتربص فرصة للسرقة.

غسلت وجهها، وأحست أن الطبيب زود غرفة الفحص بمغسلة كي تغسل النساء دموعهن بعد الفحص. خرجت إليه، كان ينتظرها قلقاً في مكتب الطبيب، جلست إلى جواره دون أن يتبادلا نظرة، أحست كم هو مرتبك وخائف، قال الطبيب: أنت حامل في شهرك الثالث.

وسمعت صوته واهناً: العملية يا دكتور، أقصد الإجهاض.... واختفى صوته.

رد الطبيب: العملية أجريها في عيادتي خارج أوقات الدوام الرسمية.

سأل الشاب: والمبلغ...

رد الطبيب بثقة: خمسة آلاف ليرة.

شهقت وهي ترد: خمسة آلاف ليرة.

خبط الطبيب يديه على الطاولة منزعجاً: والله هذه تسعيرتي،

أقصدي غيري لو أحببت...

أحست بسخريته اللاذعة وعدم احترامه لها، تدخل الشاب وقال

بصوت مرتجف:

- عرفت من صديق لي أن طبيباً أجرى إجهاضاً لزوجته، وطلب

ألف ليرة، لا تؤاخذني، لكن...

قاطعه الطبيب ضاحكاً: آه حقاً، لكأنك اكتشفت لغزاً، يا أخي

تسعيرة إجهاض المتزوجة ألفي ليرة والعازبة خمسة آلاف...

بحلفت بالطبيب مندهشة وتساءلت: وما الفرق؟

رد ساخراً: الفرق، ثمن الفضيحة، حمل المتزوجة لا يعتبر

عاراً...

كانت مذهولة، أترأه يعلن بكل صفاقة أنه يستغل أزمتها، تخيلت

أنها ستعطي حبيبها خاتمها الوحيد. حاولت أن تقدر ثمنه، وتساءلت:

من أين سيؤمن المال؟ وماذا سيبيعان وهما لا يملكان سوى حب جارف

قادهما إلى عوالمه المحرمة، وعادت تفكر بذاك الظل الصغير الأسود،

وعاد قلبها يخفق بحب عجيب، وندت عنها صرخة خرساء وهي

تتساءل: كيف سأقتل ابني؟!

وتخيلت صورة طفل بعمر سنة، حدوده وردية، يشرب الحليب،

تتشمممه، تضممه، يا الهي كيف صارت أمًا، وتحب بلا حدود. حب

يفمرها ويشكلها امرأة جديدة، ولكن الفضيحة والعار.

وسمعت صوت الشاب يسأل: أرجوك يا دكتور، ألا يمكن أن

تراعيننا قليلاً.

قاطعهُ الطيب بلهجة قطيعة: آسف، لا تساومني حول أجرتي، لا تنسى أنني أخلصك من ورطة كبيرة.

اتفقا أن تجرى العملية مساءً بعد انتهاء الدوام الرسمي للطبيب، نظر إليها الطبيب وقال: في الحقيقة هناك مشكلة بسيطة.

سألت باستغراب: مشكلة!

قال الطبيب: في الحقيقة وضع رحمك شاذ قليلاً، أقصد أنه منقلب للخلف.

سأل الشاب قلقاً: تقصد العملية تصير خطيرة.

رد الطبيب: لا، العملية بحد ذاتها ليست خطيرة، إنما تحريف رحم مقلوب إلى الخلف، صعب، قد يعرضنا لمشاكل.

قالت وهي تحس أنها تسمع لغة لا تفهمها: مشاكل، مثل ماذا؟. ابتسم الطبيب: أوه لا تقلقي، إن شاء الله، كل شيء سيمر بسلام.

قال الطبيب معلقاً: لا تخافي، أحياناً قلع ضرر يعرض لمشاكل خطيرة، إنما لا يعني هذا أن يتوجس الإنسان شراً من قلع الضرر.

انهمرت دموعها وهي تستغيث وتريد لو تقول، إن الذي في أحشائها يغمرها بالحب، ليس ضرراً ملتهباً ولا تالفاً، أطرقت هاربة من وجه الطبيب ووجه الحبيب، أطرقت في الظل الأسود والصغير الذي رآته على الشاشة، يخفق، إنه حي، في أعماقها، في قلبها، وسيجعلها أمماً فيما لو بقي، إنها تحبه، تحبه أكثر من أي شيء، وفي ومضة عين زارت كل محلات الألعاب، وكل محلات ألبسة الأطفال، وأمكنها أن تسمع صوت ضحكات الأطفال، وبكائهم، أمكنها أن تشم رائحة الحليب واليانسون وأن تراقب بعين خيالها الخطوات الأولى للأطفال، آه أية مجرفة ستسلخ الصغير من أحشائها، ودت لو تسأل الطبيب:

- من أعطاك المجرفة يا دكتور؟

وصور لها خيالها أن المجتمع بأكمله رجالاً ونساء، ينظرون إليها بقسوة وشفاههم مطبقة، وقد شبكوا أيديهم خلف ظهورهم، وفجأة، ينفك اشتباك الأيدي، ويمدون مجرفات معدنية بحواف كليلة إلى الطبيب ويقولون: نخلصنا من العار، من مشروع الطفل في رحم هذه الخاطئة، هيا، اعمل في الظلام....

كانت تبخلق في الفراغ أمامها، وتجد كل شيء مقلوباً كرحمها، أخذ قلبها يطرق بعنف في صدرها، صاعداً إلى أذنيها ليجعلهما تطنان بتدفق النبضات، مموهة صوت الشاب الذي كان يخرج كل ما في جيوبه ليدفع للطبيب الدفعة الأولى، وليرهن ساعته، وسلسلة عنقه التي تحمل صورة برج الحمل، ويقدمها لخدام الإنسانية، حامل المجرفة المعدنية.

يوم في حياة ممرضة

حين استيقظت أميرة مذعورة كعادتها من صوت المنبه العالي الذي لم تستطع أن تتألف معه، نزعَت عنها الغطاء وهي لا تزال مغمضة العينين وقامت منكشة من برد كانون وامتدت يدها حيث كنزها ولبستها فوق ييجامتها الرجالية السميكة، ثم أكملت ارتداء ملابسها وعيناها مغمضتان، كانت لا تزال أسيرة كابوس مزعج وعادت لتنحني فوق الفراش وتقبل صغيرها الذي أكمل أشهره الخمسة منذ يومين، كان الظلام يلف الغرفة والكون، وحين أزعجت الستارة الجرداء عن النافذة الوحيدة في بيتها، كانت النجوم لا تزال تلمع بضوء شاحب بعيد، ونظرت أميرة إلى رؤوس الأشجار القائمة قهرها الريح دون رحمة والأغصان اليابسة العارية تقاوم وبعضها يتكسر. وعاد الكابوس ينفرد على مساحة رؤيتها الضبابية واضحاً حياً كأنه حدث واقعياً... لم تكن تعرف أنها حفظت شكل المحقق بهذا الوضوح وأن ذاكرتها التقطت صورته وطريقته في الكلام ولهجته حتى أنها ميزت الصعوبة الخفيفة لديه في نطق حرف الراء.

وحين استدعاها لتدلي بأقوالها في التهمة الموجهة ضد زوجها - التهريب - صُعقت، لكنها تمكنت من المحافظة على هدوئها. ونجح المحقق في نقل قناعته إليها وبأنه متأكد أن زوجها مهرّب. وسألها بصوته الواصل: منذ متى يعمل بالتهريب؟

ورددت بذهول: التهريب؟

- أجل، ومن مصلحتكما أن تكوني صريحة.

ردت بصدق وهي شاردة: أن لا أعرف شيئاً عن الموضوع

صدقني.

قال وهو يركز نظراته على صفحة وجهها: لا تظني أنك تساعدين زوجك بالتستر عليه، يجب أن تفهمي أن قول الحقيقة لمصلحتك ومصلحة أسرتك، إن الكذب والمراوغة سينعكسان سلباً على المتهم.

وكررت أقوالها: أحلف لك بالله وبابني الوحيد أني لا أعرف شيئاً، بلؤكد لك أن زوجي يستحيل أن يكون مهرباً.

وضحك مستخفاً بسذاجتها وقال: أراك متأكدة، لأنه زوجك؟

وتجهرت وقالت بحدة: يا سيدي نحن فقراء، فقراء، صلقني منذ زواجنا أي منذ ثلاث سنوات لم يشتر حذاء جديداً، أصلح حذاءه مرتين، فكيف يكون مهرباً؟!...

سقطت دموعها رغماً عنها وهي ترأب ضوء النجوم الذي أخذ يتعد ويهت، كانت لا تزال أسيرة جو الكابوس، فقد حلمت بالمحقق يحدثها حديثاً لا تذكره، ثم فتح الباب ودخل زوجها وانتابها إحساس بالرعب من منظره، صحيح لم يتغير فيه شيء ولا يبدو عليه أثر ضرب أو تعذيب وثيابه نظيفة ومرتبة، لكن نظراته أخافتها، إنها تشبه نظرات المجرمين وذاكرتها تحتفظ بصور العديد من المجرمين الهائمين في الشوارع وكلهم يتميزون بتلك النظرة الزائغة والمضطربة والغريبة، آه ما به، لماذا تشع نظرات الجنون في عينيه، ثم نظرت إلى قدميه، إلى حذائه الوحيد فضحك زوجها وخلع حذاءه، وارتعبت وهي ترى قدميه بلا أصابع وصرخت صرخة خرساء، عندما رن المنبه معلناً وقت استيقاظها...

أغلقت الستارة وهي تقول متشائمة من حلمها: عسى أن يمر هذا اليوم على خير، وحدثها قلبها أن شيئاً سيئاً قد يحصل، مشطت شعرها على عجل وربطته في ضفيرة واحدة وارتدت معطفها الأبدي ووضعت شال الصوف المزهر على رأسها بطريقة تخفي الثقب الكبير الذي أحدثه الفأر في السنة الماضية، واتجهت إلى الصغير قبلت وجنته الطرية، آه يا حبيبي قالتها بكل جوارحها، إنه دافئ ونائم، ملاك صغير مرتاح. حملته، فتململ قليلاً وتقلص وجهه الطفولي مؤذناً بالبكاء، لكنها حدثته بصوت دافئ، لا عليك يا حبيبي سأدفئك جيداً، وألبسته قبعة صوفية ولفته بحرامين صوفيين وأحضرت قطعة الشاش الناعمة لتغطي وجهه، وحملت حقيبتها وضمت الصغير إلى صدرها كأنها تمنى لو تحميه وتعيده إلى أحشائها وفتحت الباب وخرجت تبتلعها عتمة الشفق، ولسعتها ريح كانون القاسية وجعلت دموعها تنسكب وأخذ الصغير ييكي وهي تشده وتضمه أكثر إلى صدرها وتقول: لا عليك يا روعي، مضطرة يا حبيبي وسارت بخطا سريعة تعاند الريح القوية ووصلت إلى رأس الشارع بعد مسير ربع ساعة.

واحتمت بشجرة البلوط الكبيرة وهي تنتظر الباص، نظرت في ساعتها كانت الخامسة والنصف تماماً، وأخذ الفجر يلوح ناعساً أزرق وعتبت على الطبيعة لقسوتها وخاطبت الريح كي تخفف حدتها لأجل الصغير الذي أخذ يسعل منذ أيام، وقال لها طبيب المستوصف: عليه بالدفع والراحة وأعطيه هذا الدواء. وتنهدت من أعماق نقطة في روحها آهاً عميقة تحولت إلى بخار ينطلق من فمها متكاثراً من البرد وسمعت هدير الباص العتيق ورائحة المازوت تعلن عن قدومه وصعدت إليه آملة بقليل من الدفع، لكن نوافذه المكسرة والمخلعة ولدت عاصفة تضاهي العاصفة في الخارج وتأملت وجه الرضيع الصغير الذي

توقظه كل يوم في الخامسة وتأخذه معها إلى المستشفى، وهناك في حضانة المستشفى ترضعه على عجل وتسلمه للموظفة وتسارع إلى وظيفتها ممرضة في قسم الإسعاف، عليها أن تخفف آلام الناس وما من أحد يخفف آلامها، وزوجها المظلوم المسكين مرمي في السجن، لا تملك أن توكل محامياً قديراً يدافع عنه ويثبت أنه ضحية مؤامرة من رفاق السوء، وكيف يكون مهرّباً ولا يدخل شيئاً إلى بيته؟ أيعقل هذا؟! وتذكرت ما قالته للمحقق منذ سنة، والله نحن بالكاد نأكل... وكيف أكد لها بضحكته أنه لا يصدق حرفاً مما تقول.

تنبّهت لقرقعة وتوقف الباص ونزل السائق وسمعتة يقول: نزل الدولاب وأكدت لنفسها أن حدسها كان في مكانه وأن شيئاً سيئاً سيحدث لا محالة، ونظرت في ساعتها وقالت بدعراً: يا إلهي إنها السادسة تماماً وعليها أن تكون في المستشفى في الساعة السادسة والرابع أو السادسة والنصف كحد أقصى، وعليها أن تسارع إلى مكتب رئيسة التمريض لتوقع على دفتر الدوام، أهم شيء التوقيع صباحاً وظهراً، بل لا شيء يعادل التوقيع أهمية، وفيما هي تنتظر قلقة إصلاح الدولاب هاجمتها صور كثيفة مكرّبة مضحكة، فما أن ينتهي التوقيع حتى تصعد الممرضات إلى الأقسام، بعضهن يدخلن غرفاً غير مشغولة بالمرضى ويغططن في النوم وبعضهن يحضرن الشاي أو القهوة أو الحليب وبعضهن يقمن بإعطاء الدواء للمرضى، فيما المستخدمون يوزعون الإفطار عليهم وبعضهن يخرجن خفية شغل الصوف أو التطريز ويشغلن لساعة أو أكثر حتى يحين موعد قدوم الأطباء ولكن ويل لهن إذا أحست رئيسة التمريض، وتذكرت يوم غافلتها رئيسة التمريض وصديقتها منهنكة في شغل كنزة لابنتها والكنزة على وشك الانتهاء ودون أي كلمة أخذت رئيسة التمريض الشغل ولم تعده إليها

رغم التوسلات والاعتذارات الشديدة، ووعدها وهي تحلف بأولادها أن هذا الفصل لن يتكرر ورفضت الرئيسة وعادت الممرضة مكسورة خاطر، والجملة الوحيدة التي قالتها: والله لست مقهورة على الصوف إنما على تعبى والكنزة قد انتهت.

وردت زميلة لها ضاحكة: يبدو أنها أخذتها لابنتها.

نظرت من النافذة، آه يبدو أن إصلاح الدولاب سيطول، وأخذ قلبها يطرق خوفاً من التأخير في التوقيع وبدأ لها دفتر التوقيع مارداً يختفي في كتاب ضخيم، وأخذ الصغير يبكي، لا بد أنه جائع وتقوَّعت مسدلة شال رأسها الكبير على صدرها وأخذت ترضعه وهي تحدّثه بأرق الكلمات الصامتة وضحكت رغماً عنها وهي تحس بعمق كيف أنها مصدر الحياة لهذا الصغير الذي تعجب كم تحبه وأسعدّها أن شهيته جيدة وشكرت ربها أن حليبها كاف ومغذ وإلا اضطرت للحليب الجفف الغالي.

تلمل الناس إلى جوارها، ونزل أغلبهم من الباص وأخذوا يتحدثون أحاديث غير مترابطة وصلت إلى سمعها كطين النحل.

انتهت من إرضاع الصغير وقلبته على بطنه وأخذت تربت بحنان على ظهره حتى تجشأ، وعادت تدثره بالأغطية السميكة ورأته يغط في النوم مجدداً، وبين وقت وآخر كان وجهه الطفولي يتشنج متألماً وتساءلت بألم: أترأه يتألم من رائحة المازوت أو من الضجيج أو من البرد، أم لأني أوقظه كل يوم في الخامسة وأسلمه ثماني ساعات لمربية في الحضانة يمكنها أن ترعاه، لكنها لن تقدر أبداً أن تحبه. آه!.. بالحب ينمو الطفل، تفتقت هذه الجملة في ذهنها بعفوية، لكنها استعادتها معجبة بمعناها وعمقها كأن أحداً لم يفطن لهذه الحقيقة قبلها.

أخيراً تم إصلاح الدولا ب، كانت الساعة السادسة والربع وسار الباص المهلهل أخيراً، لكن محطاته في الطريق كثيرة وكل ركابه من العمال والموظفين وحين وصل إلى المدينة كانت أول من نزلت تحمل بين يديها المسكين الصغير، وأخذت تركض بسرعة لا مبالية بنظرات الدهشة والاستغراب لتستطيع أن تلحق السرفيس الذي سيوصلها حتى باب المستشفى، ركضت وهي تصرخ سرفيس، سرفيس وأخذ الصغير ييكى مرتعباً وهو يهتز بقوة بين ذراعيها وهي تركض بأقصى طاقتها وساقاها تسابقان الريح، ولم تنتبه أن الصغير تقياً كمية كبيرة من حليبها الذي رضعه منذ دقائق ولحقت بالسرفيس أخيراً وهي تلهث لهاثاً يهز جسدها كله، كان على وشك الانطلاق لكنها زارت بصوت رهيب: سرفيس انتظر، فتوقف السائق وصعدت وقلبها يخفق كمضخة وأخذت حبات عرق تتكون في جبينها وحاجبيها رغم برد كانون، كان الصغير لا يزال ييكى مرتعباً وأخذت تهدده وتمسح دموعه، لكنه ازداد توتراً وعلا بكأؤه، وسألها السائق: ما به، أهو مريض؟

نظر إليه وتابع: مساكين هؤلاء الصغار.

قال جملته بطريقة أجبرت الدموع في عينيها أن تشكل وتنزلق بصمت على وجتيها، ومدت يدها تمسحها بحذر كي لا يلحظ الركاب أنها تبكي.

وصلت المستشفى أخيراً، كان الآذن يهم بإغلاق باب الحديد.

لكنها صاحت: أرجوك انتظر.

ومرت بسرعة ودخلت غرفة رئيسة التمريض، كانت دفاتر التوقيع مغلقة، وقفت منكسرة أمام رئيسة التمريض التي كانت تحدق بها بنظرات محققة، نظرات ثابتة يستحيل أن تلين، همت بالكلام فسمعت صوتها ضعيفاً مُشبعاً بالذل: أرجوك...

وجاءها الصوت الحازم القاطع كحد السكين: كم ساعتك الآن؟

نظرت في ساعتها، كانت السابعة إلا ثلثاً.
لم تجب، لكن المحققة أصرت على سماع صوتها.
قالت بانكسار: السابعة إلا ثلث.

قالت رئيسة التمريض: تعرفين جيداً أن الدوام يبدأ في السادسة وأنا أتساهل معكن نصف ساعة، أكثر من ذلك بدقيقة لا أتساهل، أظنك تعرفين هذا جيداً.

ردت بحرارة: صدقيني لقد تعطل الدولا ب.
وبحركة من كف المحققة سكنت. قالت لها محتدة: لا يهمني الأسباب، والله عال كل يوم أسمع حججاً جديدة... أنا لا علاقة لي بحججكن...

- لكن، صدقيني وحياة ابني الوحيد... لا ذنب لي.
- أرجوك لا تكلمي، تفضلي قدمي اليوم إجازة.
- ولكن...

كانت تريد أن تحكي، أن تبكي وتلعن وتولول وتنوح. كانت تريد أن تغني السكابا والميجنا لتفرغ أشجانها المحبوسة، لكنها سكنت وهي ترى رئيسة التمريض تبسط على الطاولة أمامها ورقة بيضاء وقلماً...

وانحنى وهي تحمل الرضيع على ذراع واحدة، فأمسكت القلم بيدها الأخرى وفيما هي مطرقة تكتب، رفعت رأسها وقالت:
- هل أقدر أن أقدم إجازة خمسة أيام....

نظرت إليها باستغراب: لماذا؟

- الصغير.. مريض.

- حسناً سأوافق على إجازتك، لكنها ستكون بلا راتب، لأنك استنفدت إجازاتك القانونية.

- وردت بسخرية مرة: أعرف.

مادت لها الورقة فوقعتها، قالت لها المحققة: حسناً سلمتها الآن لموظف الديوان.

أخذت الورقة وسلمتها للموظف، كان باب الحديد قد أقفل. بحثت عن البواب ليفتحه لها. خرجت والصغير بين ذراعيها، تضمه إلى صدرها بقوة تداريه من قسوة الريح والزمن وتعهده أنها ستهديه خمسة أيام من الرفاهية عساه ينسى وهو الرضيع الصغير صوت المنبه ولو لخمسـة أيام فقط.

عذاب

حين قررَّ الطيبان نقل أمانة من غرفة المخاض إلى غرفة العمليات، أحسَّ أن الفزع يتلعبها تماماً. ليس لأنها سمعت حوار الطيبين المقيمين المرتبكين بحالتها المعقدة بل لأن إحساساً طاعياً أشبه باليقين هيمن على روحها، يؤكد لها أن كارثة ستصيبها ولا يمكنها ردها

استعاد ذهنها النُهك حوار الطيبين المقيمين:

الأول: من الأفضل أن نستدعي الطبيب الاختصاصي.

الثاني: لا، لن نستدعيه، كيف ستعلم إن لم نجرب بأنفسنا؟

الأول: لكن هناك علامات صريحة لتألم الجنين.

الثاني: هذه فرصتنا لنجرب كل الحالات الصعبة، ثم لا ننسى أن

الأخصائي يغطي قانونياً.

أصدر الطيبان أوامرها بنقل أمانة إلى غرفة العمليات، كان

المخاض اللاجدي قد أنهكها، وتركها كخرقة مبللة ملتصقة بسرير

المخاض الضيق البارد، كانت تكن وقد جفَّ حلقها والتصق لسانها

بسقف حلقها، ولاتنفسك تردد يأس: أرجوك، أرجوك، أرجوك.. في

الواقع كانت ترجو الله أن يسهل ولادتها وينقذ وليدها، لكن الطبيب

اعتقد أنها تعنيه بكلامها، فقال لها بنفاذ صبر: كفى يا أختي ثرثرة،

تحملّي قليلاً، اصبري.

قالت وهي تستسلم للأيدي التي توسدها على النقالة المهترئة:
ساعات وأنا أتحمل يا دكتور، أتوصل إليك استدع الأخصائي.
زجرها الطبيب قائلاً: اسكتي، والله عال، أتشورين علي ماذا
سأفعل؟.

عبرت الرواق البارد الطويل إلى غرفة العمليات، برفقتها شابة في
السابعة عشرة لها وجه طفلة تمسك يدها بحنان، سألتها أمينة عن اسمها
وهي تحس بتلفق الحنان في جسدها عبر راحة الصبية الحلوة، قالت
بصوت يفيض عنوبة: اسمي عذاب. استغربت أمينة، بل استنكرت أن
يكون لتلك البنية ذات الوجه الملائكي اسم عذاب. قالت لها: من سماك
عذاب يا بني؟!. رفعت عذاب عينين حزبتين إلى السقف كأنها تناجي
روحاً تشتاقها ولا تعرفها وقالت: توفيت أُمي وهي تلدني، فسماني
والدي عذاب.

تعانق الحزن في عيني البنية مع حزن المرأة التي هدها المخاض،
أطبق بينهما صمتٌ مشحون بالترقب، كانت عذاب تمسك يد أمينة
حين صرخ بها الطبيب بجفاء: أنت، ما بك واقفة كالصنم، ألا
تريدين أن تتعلمي؟ في أية سنة قبالة حضرتك؟ ردت عذاب بصوت
مرتجف: في السنة الأولى. قال الطبيب بنزق: والله لا أعرف لماذا
أنا منحوس هكذا؟ كل مرة يرسلون لي تلميذات قبالة في السنة
الأولى.

طلب موظف التخدير من أمينة أن تنشق المخدر من كمّامة
سوداء قربها من أنفها ودّت لو ترفض فقلبها يحدثها أن شيئاً خطيراً
سيحدث، إنها لا تخشى على نفسها بل على المسكين الذي يتألم في
أحشائها، قلب الأم لا يخطئ أبداً، أحست أن قلب الأم موصول بقلب
الكون، وتخيلت أن للكون قلباً كبيراً نابضاً، أمكنها أن تتخيل حدوده

كنقاط لماعة تربط الأجرام السماوية بعضها ببعض، هذا ما كانت تفكر به حين أخذت تتشاءب بعمق وتدخل في الغياب.

أفلتت عذاب يدها ووقفت إلى جانب الطبيبين المتوترين، أخذ الأول يشتم النساء وتعسرات ولادقهن، ثمكنا أخيراً من استخراج الجنين، ووضعاه على طاولة جانبية، نظرت إليه عذاب بعينين تفيضان دهشة، لم يصدر عنه أي صوت، اقتربت منه وتأملت به بحب كبير، حدثت نفسها: ما أجمله!.. كان وردياً بأطراف صغيرة طرية، وبطن طري مكور يعلو وينخفض ببطء مع تنفسه. اقترب منه موظف التخدير وهمّ بإنعاشه، أمسكه من قدميه وترك جسده الصغير يتدلى إلى أسفل، كانت عذاب تفكر أن الصغير يشعر بالبرد بالتأكيد، فهي تلبس كنزة صوفية وتشعر بالبرد في تلك الغرفة الخالية من التدفئة، تساءلت: لماذا تظل التدفئة المركزية معطلة؟ مسحت الغرفة بعينها كانت حديثة العهد بالقبالة. تقصفت فرائصها رعباً وهي ترى مساعد المخدر يهوي بضربات قاسية على أسفل قدمي الوليد، فيما جسده المتدلي يرتج من شدة الضربات كئوس، انفلتت من فمها لا... جريحة ونازفة ومتوسلة في آن، لم ينتبه لها أحد! استمر مساعد المخدر يضرب قدمي الوليد بقسوة اقتربت من الوحشية، لم يبدِ الصغير أية استجابة، سوى أن جسده كان ينوس بفعل الضربات، وضعه المساعد على الطاولة، وأخذ يقرصه من أذنيه وثنديه بقوة، حتى انطبعت الأصابع على الجلد الطري للوليد، نظرت عذاب إلى أمينة الغارقة في الغيبوبة، وهي تحس بشلل، نقلوا الطفل خارج الغرفة ووضعوه على سرير بارد في الرواق المعتم.

حاول الطبيب مص المفرزات من جوف فمه بكرة مطاطية تنتهي بممص بلاستيكي، صمم الصغير ألا يفتح عينيه على قسوة الدنيا، لكن

بطنه ظل يعلو ويهبط بإيقاع ذابل. انقضَّ صوت امرأة بدينة كهلة على عذاب وهي تسأل الطبيب: هل ألبسه ثيابه؟

كانت المرأة تفرد صرة أنيقة وتخرج منها ثياب الوليد الناصعة، وأقمطته البيضاء والتي طرزت أطرافها بخيط أزرق، قدرت عذاب أن أمينة قضت أياماً تحبك ثياب طفلها.

تآزر معاون طبيب التخدير وطبيب التوليد على الوليد، يحاولون عنوة جعله يصرخ أو يبكي لكن الأخير ظل مستسلماً لخدر أحلامه المبهمة، أمسكوا الصغير مجدداً من كاحليه، وضربوه بقسوة على أسفل قدميه، أخذ يرتج بقوة وعذاب تصرخ: كفى، كفى، لماذا لا تطلبون طبيب أطفال؟؟..

لم يبال بصراخها أحد، الأغلب أنهم لم يسمعوها، وضعوا الصغير على سرير الفحص، قربوا منه وجوههم الحجرية، ضغطوا صدره براحتهم الفظة، تبادلوا النظرات التي لا يمكن لعذاب أن تفهمها لأنها لم تتورط بالعذاب الفعلي بعد، بل لا تزال أسيرة اسم، مجرد اسم.

انقض عليها صوت المرأة التي أحست عذاب أن عمرها مئة عام وقالت ببرود: لقد مات.. صرخت عذاب: مات، مات، يستحيل....

قالت المرأة: مسكين، حظه سيئ، وكأنها استدركت، بل إنه محظوظ، لقد ارتاح من عذاب الدنيا.

كانت عذاب تنتفض كأنها أسيرة حمى مفاجئة، استندت إلى السرير، وعيناها معلقتان بالصغير الذي أحست أنها تحبه كما لم تحب إنساناً في هذه الدنيا، كانت ابنة السبعة عشر عاماً تكتشف زخم الأمومة في روحها، راقبت المرأة كيف تكفن الصغير بالقماش النظيف المعطر والمكوي الذي حضرته أمينة بفرح للذي يسكن روحها

وأحشاءها. غاص قلبها وهي تتخيل أمينة تصحو من التخدير وتسأل عن وليدها.

سالت دموع عذاب سخية على خديها، لمحتها المرأة الآلية عَرَضاً، ضحكت كاشفة عن لثة تكاد تخلو من الأسنان وهي تقول: لا تزالين طفلة، بعد تسعة أشهر ستجب أمه غيره، النساء في بلادنا كالقطط. قالت عذاب بصوت مخنوق: لكن، لكن... اختنق صوتها، وبصعوبة أكملت: كيف مات؟

هزت المرأة كتفيها بلا مبالاة وقالت: لا حظ له، هذا قدره. - لكن، أما كان يمكن أن يعيش؟ لماذا لم يدفئوه، لماذا لم يستدعوا طبيب أطفال؟؟.. لماذا؟؟.... قاطعتها المرأة ضاحكة: سوف تتعذبن بحساسيتك هذه.

سألت عذاب باستنكار: حساسية!... بدت هذه الكلمة غريبة بالنسبة لعذاب، وغير مفهومة، هل تقصد تلك المرأة أن تأثرها بوفاة الصغير يعتبر حساسية زائدة؟!...!!

همت أن تسألها: ألا تشعرين بشيء؟ كل ما مرَّ أمامك، ألم يحرك فيك أي شعور؟؟! ما معنى إنسان إذا؟؟...

لكنها لم تستطع أن تشكل كلمة واحدة، بل ظلت تراقب بعيون عرساء المرأة التي كفت الصغير وحولته لما يشبه الوسادة البيضاء الصغيرة، وحين همت بتغطية وجهه، صرخت عذاب مختنقة: مهلاً. انحنى فوق الصغير، رفعت ملءة الشاش عن وجهه، لامست وجنته الطرية الوردية بيد مرتعشة، تدفقت دموعها كطوفان وهي تمس: ياه...! ما أطرى وجنتيه!! مسحت مرات عديدة على خديه، ثم انحنى وأخذت تقبله بكيافها كله من جبينه وعينه ووجنتيه، كانت مستعدة أن تقسم برحمة أمها أنه استجاب لقبلائها. تركتها المرأة المنخورة من

الداخل والخارج تفعل، قالت لها: كفى يا صغيرتي، لن تعيده قبلاتك إلى الحياة.

في نبرة صوتها سخرية لم تخفَ على عذاب، التي كانت تبكي بعيون أمينة أيضاً.

قالت لها وهي تلحم صوتها المتشقق: أعرف، لكن، على الأقل ليقبله أحد بخنان قبل أن يغادر الدنيا. ألا يجب أن يعرف القبلة على الأقل!..

كانت عذاب تفكر وهي تبتعد في الرواق المعتم البارد بأمانة التي لم تصحُ بعد على فجيعتها، وبالوليد الذي لم يرَ نور الحياة، ورغم اصطخاب مشاعرها الذي يهدّ جسدها الضئيل، فإنها أحست بشيء من الرضى كونه عرف قبلة حنان على الأقل، قبل أن تؤثر روحه العودة من حيث أنت.

فريد

لم يتردد فريد في الصعود إلى الباص رغم تحذير السائق ومعاونه للركاب بأن ثمة خطورة في السفر، لأن الثلج الذي تساقط طوال الليل في حمص وجوارها قد قطع الطريق، وبأنهم ينتظرون جواباً قاطعاً من الأرصاد الجوية. قدّم فريد بطاقة السفر وهويته للموظف الذي رmqه بنظرة تعجب قائلاً: يبدو ان سفرك ضرورياً جداً يا عم!

ابتسم فريد وهو يهز رأسه موافقاً، ومشى بخطواته البطيئة إلى مقعده، فكّر ماذا لو يعرف هذا الشاب أنني أسافر لسبب وحيد هو البحث عن دفء إنساني، وبأنه ليس لديه أي سبب للسفر سوى أمله ان يلتقي صديقاً او انساناً مثله يبحث عن علاج لسرطان الوحدة.

جاء جواب الأرصاد الجوية، بأن الطريق سالك بصعوبة، وثمة خطورة في الرحلة، لكن الباص سينطلق في كل الأحوال... تأمل فريد الوجوه القلقة للمسافرين وتراجع معظمهم عن السفر، استعادوا ثمن بطاقتهم، معهم حق، السفر في هذا الطقس مغامرة خطيرة، لكنه لن يتراجع، يستحيل ان يعود الى البيت، حيث يذكره كل ركن فيه كم هو مخذول ووحيد... شعر فريد بفرح عظيم حين انطلق الباص، ياه سيتمكن من الهروب من وحدته لساعات طويلة باحثاً عن صديق قد يلتقيه في الرحلة.

تقاعد فريد منذ خمس سنوات، ورغم تصويره المسبق لتلك المرحلة، ومعانيته لحياة المتقاعدين، إلا انه لم يتوقع ان مرحلة التقاعد مبطنة بالآلام نفسية لا تحتمل حتى انه سماها بسره مرحلة الذل.

ساعده حركة الباص البطيئة على الاسترخاء، أغمض عينيه، مستمتعاً بصوت كاظم الساهر يغني أشعار نزار قباني، حرك فيه الصوت اشجاناً، وانفلتت صوراً من حياته في ذاكرته. منذ تقاعده، لا يمر يوم إلا وانتقادات زوجته تنهال عليه كيف تدخل المطبخ، ألا ترى الأرض مبتلة، فقد مسحتُ البلاط للتو، وتأنف مرودة العبارة نفسها، بأن جلوس الرجل في البيت ثقيل ومزعج.

حتى ابنه الوحيد خذله، يعجز فريد عن الربط بين الطفل المرح المبتسم والمولع بوالده، وبين الشاب الذي صار، شاب غاضب على حدود الانفجار، ناقم، وحاقد على الظروف وعلى الدنيا كلها، وعلى والديه اللذين أنجباه الى دنيا الشقاء.

مسكين ابنه، مساكين كل هؤلاء الشباب المحبطين، لم يكن فريد يعاتب ابنه ابداً على جفائه وقسوة ألفاظه حين يتحدث إلى والده... كان يتألم لظروفه حقاً، فقد تخرج من الأكاديمية البحرية بعد دراسة لخمس سنوات كلّفت فريد الكثير من المال، بل لقد دفع كل مدخراته من اجل دراسة ابنه، لكن الشاب فوجيء ان الشهادة غير معترف بها، فأخذت تنتابه نوباً من جنون الغضب، ويتفوه بأبشع الشتائم غير مبال بوجود أب مذعور يحدق بابنه بألم غير مصدق ما يسمع.

حاول فريد ان يث شيئاً من الأمل في نفس الشاب، لكنه كان يخرج مجروحاً وخائباً في كل مرة يتحدث إليه، خاصة حين يُختم الحوار صراخ الشاب المهدق بقسوة بوالده: لماذا أنجبت اولاداً في بلد يتلذذ

بتدمير أولاده، أي ذل هذا أحصل على شهادة تكلف الكثير، ثم يقولون انه غير معترف بها.

هجّ ابنه من البلد بعد معاناة شرسة مع ذل البطالة، ألقى نفسه في المجهول تاركاً أباً مشلولاً بالألم، عاجزاً عن فعل شيء، بل صارت كل عبارة يتفوه بها فريد تثير السخرية والسخط عند ابنه. حتى زوجته خذلتة حين قررت بعد سفر ابنها ان تنتقل للعيش مع ابنتها في دبي لتساعدتها في تربية الأولاد.

اعتن بنفسك! صار اهتمامهم به يقتصر على اتصالات تزداد تباعداً يوصونه فيها أن يعتن بنفسه.

متربعاً كملك على عرش وحدته، مجروحاً في عمق كيانه، مكابراً، صابراً وصامتاً، صار فريد يجرجر أيامه، مذهولاً من قسوة البشر، وعاجزاً عن الاعتراض والشكوى، لمن يعترض؟ ولم يشكو! فأكثر الطعنات ألماً تأتيها من الأحباء.

يوماً بعد يوم يشعر فريد كيف تحوّل عيشه إلى إحساس دائم بالمرارة، وكيف صار كل صباح يحاذر ان ينظر إلى وجهه في المرآة، لأن مقدار الأسى والمرارة المرتشحين في ملاحظه يفوق قدرته على الاحتمال.

لم يكن يملك سوى أسئلة تزيد من ألمه: ترى ألا يشعر هؤلاء الذين يدّعون حبه كم يجرحونه... ألا يدركون بأن الطريقة التي يعاملونه بها تشعره كما لو ان حياته قد أُنجزت، كما ينجز رساماً لوحته!

لماذا يتأففون من تصرفاته، وكلماته، ويشعرون انه عبء ثقيل، وإذا فقد قدرته على تحمل فظاظتهم وغضبهم، وسمح لنفسه بتأنيبهم، يشعرون بالعار، إذ كيف لا يزال رجل يقترب من عقده السابع يغضب

ويشتم هكذا! ينظرون إليه بعتبٍ وبرود نظرة تعني: يجب ان تختبئ في رصانة سنوئك.

مع الوقت، وجدَ فريد نفسه متمادٍ في وحدته، كما لو ان وحدته غاراً يتمدد في داخله أكثر فأكثر، حتى زملائه في العمل الذين كانوا يرحبون به حين يزورهم صاروا يتهربون منه، ويدعون انشغالهم الكثيرة، وحده يعرف ان لا عمل لهم سوى الشرثرة، تخلوا عن المظهر الوحيد الذي يشعره بدفء العشرة والزمالة تقدم فنجان قهوة.

كفَّ عن زيارة زملائه في العمل، وحاول ان يُقحم نفسه في عادات التقاعد، لم يطق الجلوس في المقاهي لأنه لم يتحمل سحب دخان الأركيلة، وجعير المذياع وعرف مجلسٍ مؤكد انه لن يتمكن من اقتناص صديق من هذه المقاهي المسعورة - كما سماها -

متعته الوحيدة المتبقية، هي المشي، يمشي كل يوم لساعة أو أكثر مستعيداً على مهل مراحل من حياته، منتهياً كل مرة بما آلت إليه حياته، يستعيد أصوات زوجته وابنه شاعراً ان أصواتهم متسلطة عليه، ليس فيها دفء ولا رحمة ولا مودة.

كلما تم أشبه بالسياط تنهال عليه، يقاوم دموعه، وخيالاته تسرح في زمن بعيد حين كان الكلام أشبه بزهرة الياسمين، لم يفهم لماذا يحلو له تشبيه الكلام العذب الدافئ بزهرة الياسمين.

لم يقرر ابداً انه سينجر إلى عادة السفر من محافظة إلى محافظة ومن مدينة إلى مدينة بحثاً عن صديق يحتمل ان يلقاه في الباص او في استراحة المسافرين.

صدفة وجد نفسه ذات صباح - وأثناء إحدى رحلات تسكعه - يقف وراء طابور من المسافرين إلى دمشق، اشترى بطاقة، وصعد إلى

الباص، جلس وسط خمسة وأربعين راكباً شاعراً بمتعة لا توصف بأنه محاط بهذا الدفء البشري، أخذ يتأمل الوجوه خلصةً، يتسم لها ويتمتع بتنوع تعابيرها. وفي استراحة المسافرين تبادل أحاديث عابرة مع رفاقه في السفر، ثم وصل دمشق، تسكع لساعة في شوارعها اشترى أشياء لا تلزمه، ثم عاد إلى اللاذقية ممتناً لذلك الإلهام الذي قاده إلى السفر.

كان يشعر كيف يمنحه دفء الحديث اماناً وقوة، متنبهاً ان الغرباء ييؤحون لبعضهم بالأسرار بثقة، ربما لتأكدهم انهم لن يلتقون مرة ثانية.

تحول السفر إلى عادة عند فريد، يسافر مرة في الاسبوع الى دمشق او حمص ويعود متعباً الى بيته لكن سعيداً، أنه تحايل على وحدته، وأدخل شيء من الدفء الى روحه المتيبسة من غياب الحب.

كم تأمل العلاقات بين البشر، كيف تتصلب القلوب وتتحجر، يحس بالخزي والألم كيف ضمرت مشاعر ابنه تجاهه، تمر أشهر ولا يتصل به، وحين يتصل يسأله برود كيف صحتك، إياك أن تنسى تناول دواء الضغط.

ذات يوم صرخ والدموع تنهمر في عينيه منحدره في تجاعيد الخييات: انا روح، انا روح، ولست مجرد جسد.
ضحك ابنه وقال: بابا، ما الذي جرى لك، أخشى انك صرت رومانسياً.

يتجول فريد في منزله، الذي كان ذات يوم عامراً بالحب والدفء، تركوا له أغراضهم التي لا يريدونها، كم تستثير تلك الأغراض بكائه، يشعر انه احد هذه الأغراض.

فكر فريد كم كان يحب الليل، يجد في هدوئه سحراً، وفي عتمته دفئاً، لكنه صار يخشاه بعد تقاعده، فيشعر انه يقبر المساءات، وان كل ليل يمضي يسحب معه شيئاً من ضياء روحه.

وصل الباص الى استراحة المسافرين في حمص، الثلج يغطي الطريق والجرافة تعمل بلا كلل، أحس بالبرد يخترق عظامه. ياه أي جنون ان يسافر في هذا الطقس باحثاً عن صديق، متسولاً دفئاً بشرياً صار عملة نادرة في هذا الزمن فكّر ان صقيع العلاقات البشرية يفوق صقيع كانون.

رشف الشاي، محاولاً تدفئة جسده، غمرته شفقة عارمة على نفسه، كان صوت الريح في الخارج يضخم إحساسه بالأسى والمرارة المعششان في روحه، أي ذل ان يضطر كهل وحيد ان يسافر في طقس ثلجي وفي رحلة مخوفة بالمخاطر ليتسوّل عاطفة!

قرّر ألا يكمل سفره الى دمشق، لأن آلام مفاصله اشتدت عليه بسبب عضات البرد، سيعود أدراجه الى اللاذقية، تخيل كيف سيدخل بيته الموحش المعتم، وكيف سيتناول عشاءه البارد وهو واقف في المطبخ، ثم سيندس في فراشه باحثاً عن وضعية او طريقة لتهدئة ألم الوحدة الذي لا يعادله ألم على الإطلاق.

مسح بظاهر يده دموعه التي انسكبت من عينيه، تنهّد وفمه يرتعش مؤذناً ببيكاء... أية مرارة ألا يتمكن ان يتحدث مع احد حديث روح لروح وقلب لقلب... عدة مليارات من البشر ولا صديق!

وفيما هو يتقدم الى شباك التذاكر، ليشتري بطاقة العودة، منحمصاً داخل معطفه انتبه لرجل يماثله في العمر ويتسم له، بادره الرجل بالتحية: حضرتك مسافر الى اللاذقية.

رد فريد: نعم.

- أتمنع ان اجلس بجوارك، نؤنس بعضنا في الطريق.
تراقص قلب فريد فرحاً ورد بحماسة: على الإطلاق.
شعت ابتسامة الغريب في روح فريد، كشعاع شمسٍ واهٍ يشق
غيوم الكآبة الرمادية.
وكضربة سحر تفجّر حديث مفعم بالدفع والعذوبة بين
الكهلين. حديث لذيذ حيوي فوق التصور.
ضحك الغريب وقرب فمه من أذن فريد، وقال له: سأعترف لك
بسر. يالللحيرة التي يعطينا إياها الغرباء.
التمعت عينا فريد بالاهتمام والتشوق لمعرفة السر
قال الرجل: أتعرف، أنا اسلي نفسي بالسفر من مدينة الى مدينة،
كي اقتل الوقت وأتحايل على الوحدة قبل ان يقتلاني، أولادي بعيدون،
حاولت لسنوات ان اقنع نفسي ان مشاغلهم تمنعهم من الاهتمام بي
ولقائي، لكنني استسلمت أخيراً، وكما ترى اهتديت لهذه الطريقة...
انفجر فريد بالضحك، فيما دموع التأثر والعرفان تنهمر من
عينيه، وبصعوبة تمكن من صياغة عبارته: وأنا مثلك يا أخي، انا مثلك
تماماً، أسافر بحثاً عن صديق...
دعاه فريد إلى بيته، لم يتردد الرجل في قبول الدعوة، أشعل فريد
النار في الموقد واتصل بمطعم قريب ليرسل له عشاء فاحراً... ثم أحس
بلهفة غير عادية ليرى وجهه في المرأة.
يسا للدهشة، حدّق فريد بصورة الرجل المرتسمة في المرأة، وجه
يشف عن ابتسامة غريبة، فائقة العذوبة، ابتسامة روح أضناها الحرمان،
وعثرت على الكنز المفقود أخيراً، دفع بشري.

صندوق الضمير الأزرق

كانت تعرف أن نتائج الفحوصات الطبية ستكون سلبية، ولم يستطع أي من الأطباء الذين استشارتهم تحديد سبب صداعها، أحد الأطباء حاول الربط بين نوب صداعها العنيف وسن اليأس، لكنها كانت تعرف أن لاعلاقة بين الاثنين، فهذا الصداع ما هو إلا صوت الضمير المقموع منذ سنوات.

كانت محط حسد وإعجاب من حولها، لأنها زوجة تاجر معروف بنزاهته وثرائه وأم لثلاثة شبان متفوقين في دراستهم، عدا عن نجاحها في إدارة حضانة للأطفال. والأهم من كل ذلك، الحب العميق الذي يربط أفراد أسرتها ببعضهم. ماذا تنتظر أكثر من ذلك؟ فما الذي ينغصها ويجعل رأسها يكاد ينفجر من الصداع الذي يتركها أحياناً طريحة الفراش لأيام!

بدأت نوب صداعها خفيفة بعد ثلاث سنوات من زواجها، وكانت تعالجها بالمسكنات ثم صارت تلك النوب تشتد، حتى صار ألمها غير محتملاً ولا يهدأ على أقوى المسكنات.

وسط عذابها الذي لا شكل له، ما كانت تعرف تحديد أزمته وكيفية علاجها، فوحدها تعرف أن سبب صداعها نفسي، لكنها تقف مشلولة، عاجزة عن التصرف، إلى أن قرأت ذات يوم تلك العبارة، فتبلبل كيائها كله: "إن الحجر الذي رماه البناءون ورفضوه فد أصبح حجر الزاوية في البناء".

لماذا زلزلتها تلك الجملة واعتبرتها بداية الرغبة بالتطهر من آثام الماضي، أجل فتلك الذكريات التي حاولت إهمالها، معتقدة أن الزمن كافياً لمحوها، بل اعتقدت أن الزواج سيطردها، تلك الذكريات الآثمة هي حجر الزاوية في حياتها، وهي التي يتمحور حولها كيانها كله. أكّدها الزمن أن الكذب لا يؤدي إلا إلى التعاسة والدمار النفسي، إنها تدرك أن أساس أمنها الأسري وسعادتها، الكذب، والغش. لقد خدعت زوجها بطهارتها الزائفة وبالتالي خدعت أولادها، ماذا لو عرفوها على حقيقتها؟ ولماذا تنتابها تلك الرغبة العنيفة بالبوح بالحقيقة بعد تلك السنوات الطويلة من الأمن الأسري، حتى لو كان الثمن تعاسة كل أحبائها.

تلاحقها سنوات الإثم، وتقلق سلام روحها، وكلما ألحّت على نفسها في طرد تلك الذكريات، تكثّفت في ذهنها أكثر فأكثر. ذلك الزمن البعيد الذي يبدو لها كنفقٍ مظلم لا نهاية له، يومها كانت تغلي بالأحقاد على الرجال، الذي اختصرتهم بشخص والدها، والدها البخيل الذي طلق أمها بعد عشرين سنة ورماها رمية الكلاب، وتزوج من (عاهرته) كما كانت تسمي تلك الشابة اللعوب، التي عرفت وحدها كيف تجعل رجلاً مشهوراً ببخله أن يصدق عليها المال بلا حساب.

لم تكن وقتها قد أكملت العشرين، مختنقة بالقهر الروحي والمادي، تعيش في مدينة غريبة لتتابع دراستها الجامعية في اللغة الإنكليزية، شجعها حقدّها على والدها، والغربة، وشفقتها على أمها، خاصة وهي تعيش في عاصمة مزدهمة بالغرباء، كل تلك الأسباب شجعتها على رسم خط حياتها مستندة على ركيزتين، الحقد على الأب - الرجل - والحب الكبير والشفقة على الأم - المرأة - وبين هذين القطبين كفرت بالحب والإخلاص، وآمنت أنه من الجنون أن

تخلص امرأة لرجل. استغلت شبابها وفتنتها، وعاشت رجالاً كهولاً
أثرياء، أغدقوا عليها الهدايا الثمينة، وإذا قصر أحدهم في تلبية رغباتها،
استمتعت بإذلاله، وقطعت علاقتها به، إلا إذا استرضاها بالكثير من
الهدايا الثمينة.

لم تقدّر وقتها الآثار النفسية الكارثية لسنوات الإثم في الجامعة،
وكانت رغم انحلال سلوكها متفوقة في دراستها، وخلال ثلاث
سنوات امتلأ صندوقها الفارغ بالذهب وسال المال بين يديها، لكن
كل تلك الأجماد المالية، لم تشعرها بالسعادة. ظلت تحس بطعم مرارة
حارق، وكانت نوب مفاجئة من احتقار الذات تنتابها فتوقظها من
نومها وتجعلها تصرخ صراخاً هستيرياً: أنا قحبة، أنا قحبة.

لم تكن تزور بلدتها إلا في الصيف، فتغدق المال على أمها مدعيةً
أنها تعمل إضافة للدراسة، وقد انقطع والدها عن إرسال المبلغ الزهيد لها
حين علم أنها تعمل. وحين أنهت دراستها الجامعية وعادت إلى وطنها
لتتسلم وظيفة حُسدت عليها في أشهر مصرف في المدينة، تقمصت
بجحاح الشخصية التي أرادت أن تكونها، نفذت خططها بإحكام،
وبالغت في الاحتشام وتمثيل العفة والتزمت، وتمكنت خلال فترة وجيزة
من إيقاع شاب ثري - كان يملك حساباً مصرفياً كبيراً في المصرف
الذي تعمل به - في غرامها، وكان الشاب ابن عائلة ثرية معروفة
بنشاطها في تجارة البناء. وحين تقدم لخطبتها، طلبت مهلة للتفكير،
وطوال أشهر الخطبة منعت من تقبيلها تاركة إياه في حالة لهث مستمر
للحصول عليها، مما دفعه للإسراع في الزواج. وقبل حفل الزفاف
بأيومين، رتقت بكارتها، وحين نزلت شرفها الكاذب في مخدع
الزوجية، أسرع إلى الحمام لتتفرج في المرأة على تعبير الشماتة في
وجهها، أحست وهي تسير عمق نظرتها المتهللة بالنصر، أنها تنتقم

لأمها - وللنساء - من والدها - والرجال - ضحكت وهي تحدث نفسها بأن كلمة المخدع الزوجي مشتقة من الخداع.

لم تفكر في البداية أنها بنت حياتها على الكذب، بل كانت تبرر سلوكها تماماً، بأنه تحصيل حاصل لعقوبة الرجل المتخلفة. لكنها وبعد أن صارت أمّاً تحديداً، أحست بولادة مشاعر جديدة في نفسها، شاعرة أنها تستعبد بالنقاء والطهر، ثم أنها أحبت زوجها لأنه لطيف وكرم وصادق. وحين رُزقت بابنها الثالث الذي كان مريضاً في قلبه وأجري له جراحة وهو لم يكمل الشهرين من عمره، آمنت أن مرض صغيرها هو عقاب إلهي لها على سنوات الإثم.

ثم بدأت نوب صداعها تشتد، اعتقد زوجها أن سبب صداعها الإرهاق، فهي ترفض أن تساعد امرأة في عمل المنزل، إذ أنها بنفسها تخدم زوجها وأولادها غير مبالية بتعبها الجسدي، بل على العكس تحاول عن طريقه تسكين ضميرها، ثم بدأ وجهها يتغير تدريجياً ففقد تعبير الراحة، وأخذ يظلم. وقد جمّد القلق ملامحها، وبدأ إحساس جديد أشبه بالنمل ينتشر في أطرافها ثم يغزو جسدها. إنها مدنسة، وذنس الروح صعب لا يمكن معالجته كذنس الجسد. ثم بدأت تشعر أن حزناً جليلاً يهبط على كيانها، حزن عميق كضباب كثيف يعزلها عما حولها، وصارت ذكريات سنوات الإثم تلاحقها بطريقة لا مجال للهروب منها، بل إنها صارت تستشعر تلك الذكريات عامدة كي تعاقب نفسها.

ومع الأيام، وحيدة مع عذابات الماضي، ما عادت قادرة أن تحدّق طويلاً في عيون أولادها وزوجها، فكانت تشيح نظرها عنهم وهي تحس بضيق وحرّج، مكتوية بحقيقتها الآثمة، بل إنها صارت تشعر أنها لا تستحق محبتهم، ولا تجرؤ أن تحبهم وروحها مدنسة.

كانت كآبتها تزداد كلما ازداد تقدير زوجها وأولادها لها، وكلما عبّر لها الناس عن عمق احترامهم لها وإعجابهم بها. وحين فاجأها موظفوا حضانة الأطفال التي تديرها بحفل لتكريمها كسيدة فاضلة مثالية.

أصابها نوبة من الرجفان والضحك العصبي، واضطرت للانسحاب من الحفل متعلقة بوعكة معدية. وفي منزلها تقيأت والصداع يفجر رأسها، شاعرة أنها تقيأ آثام الماضي. تنبّهت للحقيقة أدهشتها أنها صارت تضحك كثيراً مدارية توترها، لكن ضحكها ما عاد يعبر عن أي فرح فهي تحس أنها مخطئة داخلياً، ولم تعد قادرة على إكمال قراءة مقال، فذهنها مضطرب دوماً، وأفكارها تتلاحق بفوضى ثم تسقط متعثرة بسبب بليلة غامضة تملأ كيائها.

بل إن نوب رجفان صارت تتابها حين تنظر في عيني زوجها وعيون أولادها، فتحس نظراتهم تخترقها اختراقاً. أما محتتها الحقيقية فتبدأ في الليل حين يزداد استعار ندمها ورغبتها بالبوح بالحقيقة. إنها تشعر بحاجة محومة لعدالة عليا، تتوق للعدل كما لو أنه أقوى غريزة في الوجود لدرجة أنها سألت كل من حولها إن كان هناك توك غريزي عند الإنسان للعدالة. إنها أسيرة شعور طاغ لا تستطيع مقاومته - أشبه ببناء علوي - يجبرها على الاعتراف. أجل لن تتطهر نفسها إلا بالاعتراف الصادق، فهي بحاجة لإعادة بناء كرامتها على أسس الصدق، فما نفع حياة قائمة على الكذب.

عند الفجر تقوم منهكة من انفعالاتها المستعرة طوال الليل، تتأمل هيتها في المرأة، فتحس بإفلاكها. صار منظرها كمنظر إنسان يحتاج أن يسترد قواه.

ألحّت عليها الرغبة بالاعتراف لدرجة شعرت أنها تعيش حالة مستمرة من نفاذ الصبر، وأحياناً من الوجد، فهي تتوق للخلاص الذي

لن يتحقق إلا بالاعتراف. تحدث نفسها: أحبائي يجب أن يعرفوني على حقيقي، زوجي الطبيب المخلص المخدوع يجب أن يعرف أنني ضاجعت رجالاً كثيرين وحصلتُ على المال.

كانت تطيل النظر إلى زوجها وهو نائم أو وهو يتفرج على التلفاز، فلا تعرف من يستحق الشفقة أكثر، هي أم هو؟ بدت حياتها مستحيلة لأنها غير قادرة بعد على تحمّل سرّ قلبها، قررت أن تقول الحقيقة، وبدت مستعدة لتقبل كل النتائج المأساوية الناتجة عن ذلك. لجأت لمصارحة أختها بما تنويه كخطوة أولى في طريق التطهّر، حكّت لها ماضيها وعذابها بسبب سنوات الإثم وقرارها بأن تعترف لزوجها وأولادها بسنوات الإثم. لم تصدّق أختها في البداية، اعتبرت ما سمعته هذياناً، بل اعتبرته بداية مرض نفسي وحاولت إقناعها بأن الماضي مات وبأنها في الحقيقة امرأة ممتازة وزوجة مخلصة وأم متفانية. لكنها لم تقنع إطلاقاً بمنطق أختها - بل ازدادت تشبهاً برغبتها في الاعتراف لأسرتها بماضيها. فهددتها أختها أنها ستقول للجميع بأنها جنّت، وأن كل كلامها هذياناً. لكن المرأة المكتوية بالندم ضحكت ساحرة من أختها وقالت لها: لكني أملك أدلة.

بحلقت بها أختها كأنها تتعرف إلى وجهها لأول مرة: أدلة؟ ما هذه الأدلة؟

أجابت بصوت هامس: أحيىء صوري مع عشاق في صندوق صغير، صوري الآثمة وأنا عارية في أحضانهم فوق فراش العهر.

- وكيف تحتفظين بهذه الصور، هل أنت مجنونة؟!

- هنا يكمن السر، أتعرفين، مراراً قررت حرق الصور وتمزيقها،

لكني كنت أعجز، إرادة غامضة كانت تمنعني من إتلاف صوت الضمير، فما هذه الصور إلا صوت الضمير الذي ظل غافياً لسنوات.

- أنت مجنونة حقاً، خسارة لقد فقدت عقلك.

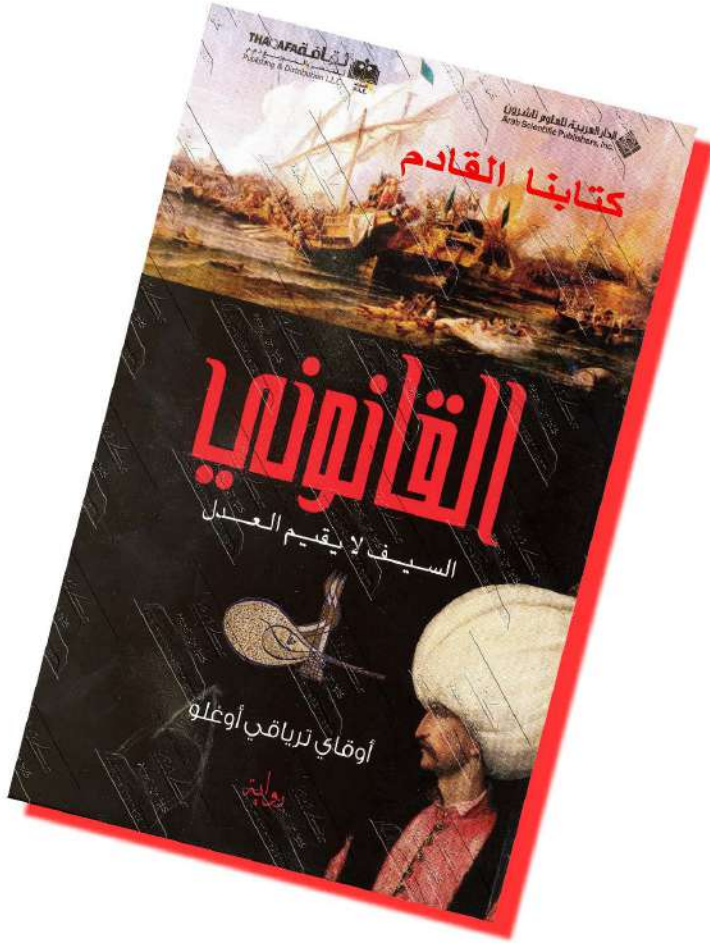
لم تستطع الأخت أن تفهم أبداً ماذا يعتمل في نفس أختها المعذبة
بآثام الماضي، ولم تفهم كيف تستطيع إنسانة بكامل قواها العقلية أن
تطوح بسعادة وشرف أسرتها، وتجنّي الدمار النفسي لأحبائها والفضيحة.
حاولت استدراجها في الكلام لتعرف أين تخبى صندوق الصور،
لكن المرأة المشتة بالعذاب رفضت أن تبوح بسرّها: لن أقول لك أين
الصندوق، وتمتلىء عيناها بالدموع ثم تقول أريد أن أبرأ، إن كل حياتي
قائمة على الكذب.

- لكنك تغيّرت.

- لا يهم، ما عدتُ قادرة أن أتحمّل عذاب الكذب، كياني يتوق
للحقيقة.

- فكري كم ستسيبن الألم لأولادك وزوجك، فكري بالفضيحة.
في تلك الليلة شعرت أنها تتوهج كجمرة، أخرجت صندوق
الضمير من مخبئه، دخلت غرفة أولادها حافية محاذرة أن تصدر أي
صوت، تأملتهم بنهم وشوق عظيمين مستعينة بنور قمر شاحب
ووحيد مثلها، تمت لو تقبلهم لكنها كانت تعرف أنها ستوقظهم،
ركعت على الأرض، وقبلت أحذيتهم كاتمة صوت نشيجها.

ثم خرجت من دنياهم كشبح، ووضعت صندوق ضميرها قرب سرير
زوجها ورغم الظلام حولها فإنها أحست أن إحساساتها الغامضة المهمة قد
توضحت وأن نوراً مبهرأ يخرج من نفسها، أحست بظماً حار إلى التطهر.
ومن دون أن تنظر إلى نفسها في المرآة، رأت ضياء وجهها وابتسمت ابتسامة
عميقة. لبست ثيابها، وحملت حذائها بيديها، ولم تلبسه إلا بعد أن خرجت
من البيت، نظرت في ساعتها أدهشها أن الصبح طلع مبكراً، تقللت نفسها
فرحاً، الصبح طلع لأجلي، بل نور الصبح طلع من روحي المتعمدة بالشفاء.



Thurs.
11/7/2013

غروب وكتابة

قصص قصيرة

هيفاء بيطار

• روائية من سورية

لوحة الغلاف: Amedeo Modigliani
«Jeanne Hebuterne in red shawl»
تصميم الغلاف: سامح خلف

• صدر للمؤلفة أيضاً:

بدأت مبهورة بالعناق الحار، والجسد الجميل
الملتصق بها، شعرت أنها تقف على حافة جرف
عميق عميق لا قرار له، وبدأت لها سنوات
عمرها الطويلة التي لم يكن في قلبها رجل مرعبة
حقاً... ثمّة رعب فظيع يتفجر من سنوات
عمرها...

لم تتوقع أن جسدها المتخشب من الحرمان،
وغريزتها المودعة في ثلاثة سيولد منها كل
تلك الحيوية،
أدهشتها تلك
المرأة المعطاءة
المتفجرة
بالأنوثة
والرغبة...



ISBN 978-9953-87-916-1



9 789953 879161

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

هاتف: (+213) 2 1676179
149 شارع حسية بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع www.neelwafurat.com - www.nwf.com كوم. نيل و

www.ibtesama.com